حفلة التجسس

رواية

عبد الرحمن حبيب



حفلة التجسس

عبد الرحمن حبيب

الكتاب : حفلة التجسس (رواية)

المؤلف : عبد الرحمن حبيب

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٥

رقم الإيداع : ٩٢٧٥ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 218 - 2

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٨٠٥٢ ش الجامعة الحديثة، الهضبة الوسطى، المقطم، القاهرة

ت فاكس ٢٧٢٧٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



حفلة التجسس

رواية

عبد الرحمن حبيب

الإهـــداء

لهاني مصطفي و محمد عطية

هناك خط سير آخر للأحداث لا يعلمه إلا الله

١

يبدأ العمل بالتوقيت الشتوي، وأمشي في الشارع مزهوًا مع صديقي محمد عطية؛ لنقطع نفس تلك المسافة البغيضة المعتادة بعد أن تركنا مجموعة من الأصدقاء. سمك لبن تمر هندي، إخوان شيوعيين ولا منتمين. الطريق المسود الطويل يكفي تمامًا لابتذالاتنا المتصاعدة. وعندما أكون على وشك سماع طقطقة أسناني بعد ضحكة طويلة أسمع "حبيبي وعنيا لو في وسط ميه...".

ثم مرام...

– آسفة إني أكون أول واحدة تبلغك الخبر، بس كان لازم...

– خير.

– سوزي ماتت.

علامة استفهام طويلة في رأسي المعوج بفعل التليفون، ثم محمد عطية يعدِّل أوضاعي لأفاجأ أنني ما زلتُ في اليوم الثاني من أكتوبر عام ٢٠٠٤.

محمد مُصرٌّ بالتأكيد على تكملة ابتذالاته، وتذكر القفشات القوية والإفيهات الممتازة.

"حسنا أيها السيد ابدأ الآن برفع قميصك من فضلك لـــ......."

كان التحري يفتش متهمًا في فيلم أجنبي ممل ومكرر، تُصرُّ المقاهي على بثه بثًا حيًا مكررًا متطاولاً في جميع أرجاء منطقتي التي ابتلعتني منذ لحظات فقط. اترك محمد قبل بلوغي باب البيت بخطوة فيصرخ:

– مالك يا بني.

"أريد فقط رفع قميصي أيها السيد" .

كي أدخل الحمام، وإلى السلم الضخم.

اليوم فقط أشعر أنه huge كما قال المفتش. الحادية عشرة والنصف، يا لهذه الساعة المزعجة، كان يجدر بصانعيها أن يضيفوا للشريط المسجل الذي يتلو نبأ آخر ما ابتلع من الوقت كلمة لطيفة في أخر الشريط، يا صديقي مثلاً...

تضحك أمي ضحكة خفيفة، ومع كل دقيقة أتأكد أن الليلة huge فعلاً.

"أيها السيدان سيرتفع أحدكما بفعل تلك الرافعة ليلقي بحجر على زميله فمن يتبرع ليكون السبّاق..."

أخي ونفس الفيلم. وأتساءل عمن يترجم الأفلام الأجنبية تلك الترجمة البديعة. أتصل بطارق:

– هاي كيف حالك، مش عادتك إنك تتصل بعد المقابلة الأسبوعية الرقيعة و.....

– خلاص يا طارق.

أتأكد أنني لست في حلم. فذلك يساوي بالضرورة أن سوزي فعلاً ماتت. أشعر في تلك اللحظة فقط بالحزن الشديد الذي لم أشعر به طوال المدة الفائتة، ثم ينتابني شعور غريب متوتر بأنني أريد التقيؤ بشدة.

– طارق فيه خبر كده...

– خير؟

- سوزي ماتت...

- نعم!!

- سوزي ماتت.

- سوزي زميلتنا في الجامعة؟

- أيوه... مرام لسة مبلغاني الخبر.

أشعر في تلك اللحظة كما لو أن مخيطًا عظيمًا دبَّ في أعماق صديقي ذي اللحية الصغيرة.

يندفع صديقي شارحًا لي بطريقة مبسطه كيف أن الموت علينا حق، وأن علينا أن نصبر ونحتسب. أحسده تلك المرة على لحيته التي طالما سألته عن جدواها، وأكتشف اكتشافًا غريبًا كوخز دبوس، وهو أنني كثيرًا ما شعرت أن طارق واقف دائمًا على جدار من الصلب. إنها لحية عظيمة تلك التي تُعطي الأشخاص كل تلك الصلابة والرخامة في الصوت عند المصائب والمفاجآت.

نصف ساعة وطارق يتكلم وأنا لا أسمع شيئًا مما يقول لأنني أفكّر في موضوع آخر. وأتذكر تلك الحالة التي تنتابني عندما أكلّم شخصًا

ولا يرد عليّ ويمعن النظر فيّ. تنتابني حالة عصبية من الكلام لا تنتهي إلا عندما يغلق الطرف الآخر المناقشة بابتسامة أو إيماءة. أشعر أن طارق الآن في نفس الوضع. مذهولاً أضع السماعة بعد نهاية دراماتيكية لليوم المبهج في الغالب، وأنام...

"لعن الله أيام الخميس".

يقولها الشيطان في رأسي.

٢

الصباح يغمد ألسنته الرفيعة الشفافة في عيوني الضعيفة. وأصحو لأجد طارق.

- كنت متأكد إنك جاي.

كانت عيناه سوداوين تحيطهما كرة من السواد منتفخة، وكنت على وشك النظر إلى وجهي في المرآة لكنني تراجعت بعدما أمعنت النظر في وجهه...

- أنا مش مصدق اللي حصل.

- ولا أنا.

- كانت بنت موت البنت دي، كان فيه حالة غريبة من عدم التوفيق ملازماها وهو ده الشيء اللي أوحى لي إن مصير غامض بيقرّب منها، وفي مرة ألهمت إنه الموت.

كلامه يبدو منطقيًا، لماذا لم أفكّر في ذلك من قبل. كانت صورها معقوفة في ذاكرتي...

• • • •

- حاسه إنه بيحبني ومش عاوز يقول

- إيه اللي بيشدك ليه؟

- غامض وحقيقي

- الغموض ميزة؟!

- كبيرة يا هاني، غموضه مديله تميز مش معقول.

- أنا شايفه غير كده خالص

تقاطعني بصدق :

- ما تقولش عليه كده

كانت سوزي تبدو كالسكرانة في ذلك اليوم لمجرد أن فتاها الذي لا أعرفه تقريبا أبدي غيرة من نوع ما غريب.

٣

الدفاع: "يا سيدي القاضي أحب أن أوضّح أن الفتاة لا يليق أن تعيش مع مطلقة موكلي لأنها ليست أهلاً لتلك المسئولية العريضة، إنها تعمل في فندق".

حكمت المحكمة حضوريًا بضم الطفلة سوزي محمد عبد الحليم موسى إلى حضانة والدها محمد عبد الحليم موسى.

"ثم طرت إلى تونس مع والدي ولم أعرف شكل أمي سوى في السادسة عشر".

كانت تسكب تلك اللقطة في أذن حبيبها عندما قُطعت خلوهما فجأة وهما منتحيان جانبًا بعيدًا في النادي الليلي الذي كان مقرًا دائمًا لصحبتنا.

اسمه كمال؛ طويل القامة رفيعها، يبدو على ملامحه الأرستقراطية رغم بساطة ملابسه، كان طالبًا في إحدى الكليات العملية. يتسم بالهدوء، لكن الشرر كان ينهض من عينيه عندما جاء للسؤال عن سوزي في اليوم التالي. تذكرتُ أنها ظلت تتحدث طويلاً عن مشكلات لا تنتهي بينها وبين حبيبها الذي يتسم بالغرابة. له وسامة غريبة وتكوين جسماني أغرب ونظرة تُثير العجب. سألني عن سوزي؛ كان بصحبته أربعة من الشبان لا أدري من أين أتى بهم.

أجبت:

– معرفش!

كانت يداه ككلابتي صلب في كتفي. ما الذي يعجبها في ذلك الجلف، كنت قد بدأت أقلق عليها في تلك اللحظة.

٤

تسجيل ١

– هتعترف أنها بتحبني

وصخب

– ممكن تستني شويه

كان صوته أجشًا بطريقة مبتذلة.

– في الحب ما فيش انتظار لكن أنا مستمتع جدًا بالحالة اللي احنا فيها، عينيها بتنطق

– طيب إيه المشكلة ؟

– المشكلة في الورقة اللي في كتابها

– إنت لسه فاكر............. انسي الموضوع

– بسهولة

– بسهولة شديدة

– طب إيه تفسيرك ؟

– كانت بتغيظك

– احتمال وارد لكن الكلام المكتوب في الورقة يؤكد أنها بتحب واحد تاني.. اسمه أحمد

– الورقة مكتوبة في الليلة اللي قبل تسليفك الكتاب ومحطوطة بمنتهي العناية في الكتاب علشان تقراها زي الدغف وتتغاظ من الغريم الوهمي

– المكتوب في الورقة منمق ومرسوم بعناية شديدة، القلب في النص وفوق الجزء الأعلى اسمها و تحت اسمه وتاريخ ميلاده

١٩٧٨/١٢/٤

– برج القوس....... عبيط يعني

– إحنا ف إيه ولا ف إيه يا ابن الخايبة ؟

يستكمل : وفي الوسط

I love you so much

– يعني إيه ؟

– إنت هتستعبط يا شنكوتي يا ابن ال.................

- أبويا

صوت رجل ناضج يقول:

- إزيك يا كمال

صخب ثم تشويش وصوت تليفزيون يفتح ثم صوت تغيير القنوات وتشويش............

كان ذلك التسجيل محفوظًا على هاتف سوزي بطريقة أو بأخرى ولم يفتني أن أسألها كيف سجلت مثل هذا التسجيل الطويل لحبيبها كمال وصديقه الوحيد المدعو سامر.

كانت تسجّل له دون أن يدري عن طريق شريحة وضعتها في هاتفه المحمول ولم أعرف من أين حصلت عليها..

قالت إنها اشترتها من مزاد على الإنترنت.

كانت مهووسة.

تسجيل ٢ :

– كمال: سألت أبوك على موضوع الرخصة؟
– سامر: سألته مالوش سكة.
– كمال: معاك نيكوتين؟... عايزين نترل.
– سامر: نقعد ف البيت أحسن.
– كمال: أبوك ابن الغلسة زمانه جاي. شكله بيفكرني بحيوان مقرف إيه هو مش فاكر!
– عملت إيه مع البت بتاعتك؟
– البت بتبصلي بصات عجيبة، شعور غريب لما أحس إنها بتنزع نظراتها فيا، باحس إننا متوافقين جنسيًا، باحس إن نظراتها بتزود الحصار على روحي تدريجيًا وإن معنى الجنس بيوضح في نظراتها بمرور الوقت.
– الحب تعبير مثالي عن الرغبة الجنسية.
– بس مش للدرجة دي!
– واضح إن عندها sex appeal عالي.

– هايل، ملامحها sexy بشكل، وشفايفها ممتلئة، مع غنج أنثوي غير معقول، ورغم كده تحس إن وشها منقوع في جردل براءة.
– أمال لما هي كده بتحبك إنت ليه؟!
– اسألها.

كان الأمر المضحك في هذا التسجيل هو أن كمال يعطيها اسمًا آخر غير اسمها الحقيقي أمام صديقه الأجش الصوت، كان اسمها في التسجيل "عُلا"، وددتُ لو اسأله لماذا اختار لها هذا الاسم بالذات.
– سامر: قولت لي إنك كنت تعرفها وأنت صغير؟
– كمال: أيوه معرفة عائلية، قابلتها مرة واحدة وما قدرتش أشيلها من ذاكرتي بسهولة. فضلت أفكر فيها سنين. كانت أخاذة وجذابة من وهي صغيرة. كانت أمنية من أمنيات حياتي إني أشوفها تاني، وجت الفرصة زي ما تكون متفصلة عشان نتقابل مرة تانية، أخويا قال إنها في مقابلتنا الأولى مسكت إيدي.
ضحك هستيري لسامر:
– خدشت حياءك واقتحمت براءتك... كنت في سنة كام ساعتها؟
– تالتة إعدادي.
– يا عيني يا صغير... طب وهي؟

- تالتة إعدادي برضه.

ضحك هيستيري لسامر:

- واضح إنها شبقة من صغرها.

يستكمل سامر صديق التسجيلات:

- ويشاء السميع العليم إنكم تدخلوا نفس الجامعة والكلية.

ثم بسخرية:

- شوف الصدف!

- الصدفة عمرها ما تكون هباء. إنت مدرك معني انك تحب بنت وانت عندك ١٣ سنة وتنساها، وتقابلها مرة ثانية وإنت عندك عشرين سنة. المثير في الموضوع أن الصدفة مكانتش الأولي، السنة اللي فاتت لما رحت أزورهم في البيت بعد العلاقة العائلية ما رجعت بشكل مفاجئ اقتحمت عليّ الأوضة أنا وأخوها عشان تشوفني. فضلت مثبتة عينيها في عيني دقيقتين من غير تحط أي اعتبارا لأي حاجة ، ولما رجعت البيت طلبت رقم بيتها، كنت واثق أنها هترد ولما ردت حطيت السماعة وبعد نص ساعة رن جرس التليفون، رفعت السماعة ومحدش رد، لكن أنا كنت قادر أميز صوت أنفاسها بدقة.

تسجيل٣:

صوت كمال يصدح:

نورك يا عينيها يملأني

نورك يا عينيها

يتحدى أنوار الشمس

ويستوحي أضواء البدر

أمسك بيدي اليمنى عنواني ويديك

أمسك بالأخرى مفتاحًا وشراعًا وجناحين

ثم نعيد الضحك ونبكي

لنحس الضحك جنونًا

والكون جنونًا

والدمع جنونًا

فأخيرًا صرنا

كطيور الكروان

لا يمنعنا شيء

حين نغني

تصفيق حاد وشهادات متوالية بأنه سيضحي شاعرًا كبيرًا.
كان هذا التسجيل هو الوحيد الذي تمّ بطريقة شرعية.

٥

كانت عيناها مغرورقتين عندما سألتني عنه في النادي الليلي steel الذي رأيت كمال فيه برفقتها لأول وأخر مرة، كانت بصحبة نهال صديقتها، ذهبتا إلى مكان مظلم في عمق المكان بعيدًا عن الصخب والأضواء. دفعني فضولي لمراقبة الموقف، كنت أشعر أن شيئًا غريبًا سيحدث في تلك الليلة. كانت تشبه الأطفال في ذلك اليوم تحديدًا، وعندما كانت عيناها تعومان على بركة من الدموع؛ زاد إحساسي بطفولتها وإشفاقي عليها من قسوة قد لا تحتملها.

كان هو مندفعًا كالسهم، وفي هذه اللحظة بالذات أحسست بغموض شخصه الذي طالما حدثتني عنه، ثم سمعت صوتها يقول:

– إيه اللي إنت عملته ده؟

ردَّ كمال:

– عملت إيه؟

كانت يداه تعبثان بالبلوزة الضيقة التي تلبسها، وبينما كانت عيناه مثبتتين في الفراغ خلف رقبتها شاهدت ذراعه اليمنى ترتفع في الهواء لتهوي على وجهها الصغير تاركة لونًا قرمزيًا سيتحول إلى ورم بعد يومين على الأكثر.

• • • •

تسجيل ٤:

كمال: قابلتها النهارده

سامر: أخيرًا

كمال :كانت بتسأل عليا أصحابي الفترة اللي فاتت

سامر:ده تطور مذهل.... ربنا يوفقك

كمال: عاوز أتأكد إذا كانت بتحبني ولا لأ

سامر: التلميحات كلها يا صديقي بتأكد ده، ثم إيه الخسارة اللي هتحصل لو صارحتها وبعدين قالت لك ما فيش نصيب أو يحنن.... يا ابني خدها ف حضنك بقى واخلص، الله يخرب بيوتكو.

كمال : أحلى ما في علاقة الحب هي فترة التلميحات والنظرات الخاصة، عينيها بتدخل في أنسجتي، علاقة من نوع خاص، ضاربة بجذورها في أعماق الطفولة، أنا واثق من إنها حست بنفس المشاعر اللي حسيت بيها بعد لقاء خاص في طفولتنا وإنها حبتني وكانت مستنية اللقا.

سامر: يعني انت لو حبيت واحدة هي كمان تحبك؟

كمال: المفروض

سامر: والحب من طرف واحد؟

كمال :ضحاياه الأغبياء والموهومين، كل البشر عندهم قابلية للإيحاء لكن النسبة تختلف بين واحد والتاني، كتير من الناس عندهم قابلية عالية جدًا للإيحاء. موهومين بالفطرة. ممكن يتوهموا بأي شيء من أي بني آدم عنده شخصية قوية، وممكن نتصور الأوهام اللي

ممكن توقعهم فيها عقولهم بالتالي، هما دول اللي بيحبو من طرف واحد، ممكن بسهولة ملاحظة إن الحب من طرف واحد مش بس غير منطقي لكنه وبوضوح مناقض تمامًا للمنطق، وبالتالي نقدر ببساطه نستنتج أن عقل الشخص ده مدمن للأوهام وإن المشكلة تخصه.

سامر: المشكلة إن الناس دول رومانسيين زيادة عن اللزوم وإنت واقعي زيادة عن اللزوم.

كمال: اللي أنا واثق فيه أن قصتي مع علا قصة خاصة جدًا.

أكتم ضحكتي فهو مازال مصرًا على أنها علا

آه لو يعرف هذا الأجش أنها ليست علا

إنها سوزي

أفكّر قليلاً..

لماذا يصِّر الشرقيون علي أن يخفوا أسماء محبوباتهم

لماذا ؟

– الحب الضارب في أعماق الطفولة يساوي كتير، أنا مؤمن تمامًا برأي فرويد اللي بيقول أن الطفولة أهم فترة في حياة الإنسان، في

الفترة دي العقل بيخزن كل شيء بدقة تامة وبتقنية بالغة الإحكام، أشكال الأشخاص، والأجواء السعيدة،والأجواء الحزينة، قل لي مثلا إنت ليه بتحب أشخاص لما تقابلهم لأول مرة وبتكره ناس تانية، الإجابة ببساطة أنك في مرحلة طفولتك كان فيه ناس بيلاعبوك وناس تانية ما بيتعاملوش معاك بنفس الاهتمام، وخزن عقلك الصغير المعلومات دي فكونت صورة كاملة عن ناس تحبهم لما تشوفهم وناس تانيين بتعاملهم من غير اهتمام، بالنسبة للحب نفس الموضوع، خلايا عقلك الصغير كونت ملامح لوشوش مفضلة بعد ملايين الانتقاءات، الملامح دي لما بتقابلها بتحب على طول، ميزة العقل أنه كومبيوتر تراكمي عشان كده يستحيل أن يكون فيه شخصين متطابقين تماما في التفكير، في العواطف والمشاعر والذكريات ما فيش خاصية النقل المطابق للصورة تماما، يعني العقل مش بيخزن صوره المفضله زي ما هي تمام، ممكن يضيف شويه أو يحذف شوية ، ولما كان العقل مخزن للمعلومات بشكل تراكمي فالصور المفضلة بتكون في النهاية صورة وحيدة ملهاش علاقة لها بملايين الصور اللي اختارها على مر الطفولة. الصور دي بتتفاعل

وتتداخل وتتزاوج عشان تنتج صورة واحدة للشخص المحبوب في المستقبل، يمكن صورتين أو تلاتة أو حتى خمسة لكن مش أكثر من كده، السمة دي للعقل سمة أصيلة زي ما هي للمشاعر والذكريات العقل في العموم تفاعلي، يعني المعلومات والذكريات والأسماء والعلاقات بين الأشياء بتتفاعل باستمرار في العقل لانتاج كيانات جديدة وأفكار جديدة وعلاقات جديدة، ولو مكانش للعقل الميزة دي مكانش حد من العلماء ممكن يخترع اختراع جديد ومكانش حد من الأدباء ممكن يوجد نص مختلف أو عظيم، كل ده له علاقة بمرحلة الطفولة اللي استقر العقل في نهايتها بعد ملايين الاختيارات على ما هو مفضل وما هو مرفوض.

• • • •

تسجيل ٥:

لا يظهر في ذلك التسجيل صوت سامر صديق التسجيلات، فالأصوات كلها هادئة رقيقة تتداخل معها موسيقى هادئة...

– هل تعتقد إذن أن عشر سنوات في القرية شكلتك شاعرًا قبل أن تحط الرحال في المدينة؟

– كمال: طبعًا لأن المدينة لا تنجب شعراء، نشأت في الريف وهو ما أتاح لي فرصة عريضة لتدريب نفسي على التأمل الطويل والعميق، كل الملكَات العقلية ترتفع كفاءتها بالتدريب وتقل بالإهمال، حتى القدرة على الاستيعاب التي أهملتها بعدما أبهرني عقلي بقدرته الكبيرة على الربط، فصرت الآن لا أفهم أي شيء يشرح أمامي، في المدينة جبال الإسمنت لا تتيح لك الفرصة لمد بصرك لمسافة تزيد عن المترين فكيف لك أن تتأمل أو تفكر بشكل عميق.

كل ما يدخل العقل يختزن بطريقة ما، وبالتالي فكل المشاعر والقراءات الأدبية والاستنتاجات تظل في حالة تفاعل دائم حتى تأتي

لحظة الإشراق، التي ينجب فيها العقل نصًا جديدًا إلى البشرية، ومع قدرة معقولة على استخدام اللغة؛ يصبح كل شيء ممكنًا، العنصر الفارق هنا هو كيفية التأمل في المختزن فهو الذي يفرق بين الشاعر الجيد والرديء، الشعر نشيد التأمل.

• • • •

تسجيل ٦ :

كمال: سأبوح بحبك للريح وللأشجار...

يصمت ثم يكمل:

– هذه القصيدة أحبها بفظاعة، بصي عاوز أوريكي حاجة في الديوان... يتلو المقطع:

وربيع شهواني أسود في عينيها يدعوني

وسوزي ساقية البار تدلت

– النهاردة اشتريت الديوان ده لقيت اسمك فيه قلت أكيد دي إشارة.

تتكلم سوزي:

– كمال... عاوزة أمشي.

– على فكرة.. نسيت أقولك على حاجة.

– إيه؟

– باموت فيكي.

– إيه؟!

– باموت فيكي.

صوت طقطقة الصندل الضخم يعلو وأدرك أنا أنها مشت من أمامه بفعل ظاهرة الخجل.

٦

يتوقف سيل التسجيلات المحفوظة على هاتفي والتي قررت من خلالها استعادة سوزي مرة أخرى إلي العالم للحظات فأتذكر طارق والعزاء وقصة الموت الأخيرة. كانت سوزي تسجِّل لكمال وكنت أنا أحتفظ بالتسجيلات!

سألت ط [illegible] في التليفون:

– [illegible]رف تفتكر إيه التصرف السليم في المواقف اللي زي دي؟

– على ما أعتقد لازم نؤدي واجب العزاء.

– تعرف بيتها ؟

– لا

– هاتصرف

أطلب رقمًا فتجيب مرام:

– مرام البقية في حياتك

– في حياتك الباقية

– معاكي نمرة بيت سوزي

– مش هتلاقو حد في البيت كلهم في بيت العيلة في الشرابية

– معاكي النمرة

– أيوه

– قولي

– ٢٣٨٣٩٣٢٤

– ماشي يا مرام...سلام

يسألني طارق:

– خدت النمرة؟

– أيوه

– أديهالي

أكتبها في ورقة بيضا

يأخذ طارق النمرة وعندما يكون على وشك الانصراف أهمس:

– للدرجة دي الموت قريب

يرد طارق سريعًا:

– هاني خلاص

– اللي مجنني أنها تقريبا عمرها ما عاشت لحظة عدلة في الدنيا الـــ...

واجهني هذه المرة بعينين صارمتين وشدَّ على حروفه:

– هاني لا تسبوا الدنيا

– هنعزي في التليفون وخلاص

– ماشي

حالة الذهول مازلت مسيطرة عليَّ، سيكون أمامي وقت طويل حتى أستطيع العودة لحياتي الطبيعية مرة أخرى.

أتصل بالرقم كيلا أنسى:

– سلام عليكم

– عليكم السلام

الصوت يبدو متأثرًا بشدة

لم أدر ما الذي يمكنني فعله في ذلك الوقت فارتبكت لثوان ثم:

– البقية في حياتك

الصوت منهارًا:

– في حياتك الباقية

ثم صوت بكاء

– ممكن أكلم والدة سوزي؟

– حضرتك مين؟

– أنا زميل المرحومة و.......................

– في حالة وحشة أوي مش هاينفع، خالها موجود ممكن تكلمه.

يتغير الصوت لآخر ذكوري أكثر تماسكًا:

– أيوه

– البقية ف حياتك

– ف حياتك الباقية، مين حضرتك؟

– أنا هاني زميلها في الجامعة

– متشكرين أوي يا ابني

– على إيه حضرتك مش عارف الخبر ده عمل فيا إيه، البقاء لله

– كل نفس ذائقة الموت، متشكرين يا ابني

– طب حضرتك مفيش أي حاجة نقدر نعملها أنا وزمايلها

– ربنا يخليك....مع السلامة

– مع السلامة

أتصل بطارق فيسألني:

– عزيت؟

– أيوه

– مين؟

- خالها وخدت العنوان في الشرابية عشان لو حبينا نروح نعزي.

- تمام، فوق بقي من حالة الذهول اللي إنت عايشها دي، قدَّر الله وما شاء فعل.

- مش قادر أتخيل يا طارق حد كان معاك، وكنت بتكلمه وبتشوفه كل يوم تقريبا وفجأة متلاقيهوش، إحساس قاتل، مشكلتي إني مش قادر أتوافق مع حقيقة إن سوزي ماتت.

- حاول ترجع تاني لحياتك ببساطة، إعمل إي حاجة، اخرج، اتصل باصحابك، اتصرف.

-..

- هاني

- أيوه يا طارق

- إنت معايا؟

بصوت أقرب إلي الموت:

- أيوه

- سمعت اللي قلت لك عليه

– هحاول

ثم وضعت سماعة الهاتف ورحت في النوم.

٧

باب المنْزل على وشك السقوط تحت ضربات قوية، كنت المستيقظ الوحيد في البيت، مجموعة كبيرة من العسكر وضابط:

– إنت هاني مسعد مصطفى؟

– أيوه أنا!

– تعال معانا عاوزينك شوية.

– حاضر.

كنت على وشك النوم الذي لم أذق له طعمًا منذ ٤٨ ساعة، أركب سيارة الشرطة دون سؤال عن سبب استدعائي فألاحظ الشماتة الرهيبة في عيون العساكر المريضة بالتوحد.

– اسمك وسنك وعنوانك؟

- هاني مصطفى مسعد، ٢٣ سنة، ١٠ شارع عثمان بن عفان مصر الجديدة.
- بتشتغل إيه؟
- طالب بكلية الآداب، ومصور فوتوغرافيا وكاتب سيناريو في مسارح الهواة.
- إنت تعرف سوزي من زمان؟
- من ٣ سنين.
- كنت صاحبها؟
- أيوه
- الواد بتاعها يعني؟
- يا باشا أرجوك هي دلوقتي عند ربنا ما يصحش تتكلم عليها كده.
- هو أنا بقول إنها كانت لا مؤاخذة... وبعدين إنت هتعرفني الأصول ياد ولا إيه!
- العفو يا بيه.
- بس إنت كنت الواد بتاعها؟

– لأ.

– كان مين الواد بتاعها؟

– معرفش، هي سوزي ماتت مقتولة؟

– ماتت مسمومة يا أفندي!

قلبي يسقط في قدمي وعيناي تزدادان احمرارًا، كيف لم اسأل مرام عن طريقة موقما، ربما لا تعرف هي الأخرى.

– كنت فين إمبارح من الساعة ٦ بالليل لحد الساعة ٩؟

– كنت نايم.

– إنت هاقزر معايا يا روح أمك؟!

– كنت نايم والله.

– هاخليهم يفتشوا بيتك ويبهدلوك.

يسكت قليلاً ثم يقول:

– يعني إنت ما كنتش الواد بتاعها؟

– لا والله.

– هات يا ابني الموبايل بتاعه.

• • • •

تسجيل ٧ :

"تقدر تقوللي بنقابل بعض ليه.. تقدر تقوللي بقى فاضل بينا إيه" ثم صوت الكاسيت ينخفض:

– بقولها النهاردة أحمد ومرام بيحبوا بعض أوي.

– وقالتلك إيه؟

– قالت لي وإنت مش بتحب؟

– كلمة مبتذلة... وانت عملت إيه؟

– سكت.

– نفس الكلمة المبتذلة... ليه؟

– مش عارف

– هايل يا ابني... بصراحة أنا لو من سوزي أرمي طوبتك، أو أضربك بالطوبة في دماغك، ليه يا ابني كده؟ عيب يابا اللي بتعمله.

تك.

صوت نهاية التسجيل وبداية تسجيل آخر:

"أحن لك وإنت ما بتحنش... بتحبني لا لا ما أظنش

لأ ده أنا زعلان بجد... بس ما باشكيش لحد"

– يسمى هذا الصنف الحقيقة والسراب في ذكر ما جرى لصاحب السرداب...

صوت ضحك هيستيري:

– أنا مش شايف حاجة بجد خفوا شوية يا رجالة.

– إنت مال أهلك!

– خليك إنت ف دركسيونك.

– هو اللي قاعد ورا ده اسمه إيه؟

– كمال.

– كمال إيه؟

– كمال محمد سعيد.

– كمال محمد سعيد إيه؟

– لا هما الأسماء ثلاثية عندهم ف العيلة

– طب قولي الاسم الرابع وأنا أسيبك.

– مبروك.

– مبروك على إيه؟

صوت الضحك يتواصل، وصاحب الصوت الأجش:

– يقول الزمخشري في كتابه عن الحضارة: الحضارة هي ما تنجزه الأمم.

ضحك هيستيري:

– الحضارة هي ما تنجزه أمك إزاي يعني؟

– أيوه ما هي أمه هي اللي أنجزت الحضارة مع أبوه.

– وعلى كده سموها الحضانة ليه؟

صوت الضحك يتعالى...

ثم الضابط يرمي الهاتف المحمول بعصبية على الأرض:

– ما هو ده اللي مضيع البلد... الحشيش.

شعرت أنني سقطت من حالق، فقد كنت احتفظ بتلك التسجيلات على تليفوني من باب التسلية، وكنت قد نقلتها من تليفون سوزي. كنت أشعر بلذة غريبة في سماع تلك التسجيلات، ربما كان يروق لي تحديدًا أن أستمع لتلك التسجيلات لأشخاص لا أعرفهم دون أن يتخيلوا هم أنفسهم حدوث ذلك.

– تقدر تقولي إيه ده؟

– دي تسجيلات سعادتك.

- هنرجع تاني للاستهبال، ما أنا عارف يا بني آدم، مين اللي مسجل التسجيلات دي يالا؟

ترددت لحظة ثم:

- سوزي!

- وإيه سبب وجودها على تليفونك؟

- نقلتها من موبايل سوزي.

- ليه؟

- كانت عجباني.

- ويا ترى سوزي كانت بتسجل للعيال الصيع دي ليه؟

- كانت تعرف واحد فيهم.

- تقوم تسجل له!

- ده اللي حصل سعادتك.

- وكانت بتسجل له إزاي؟

- معرفش!

- والواد بقى اللي عليه العين والنية اسمه إيه؟

- كمال.

- ساكن فين؟

- معرفش!

- زميلها في الجامعة؟

ترددت لحظات:

- أيوه، بس أنا عاوز أقول لسيادتك إن علاقتها انقطعت بالواد ده.

- ليه؟

- كان فيه بينهم خلافات.

- خلافات كمان! ده شيء جميل والله، ع العموم اتكل إنت على الله روَّح ولما نحتاجلك هنجيبك.

٨

الساعة السادسة صباحًا، وعدّاد الإرهاق يتجاوز ٦٠ ساعة بلا نوم.أمشي كالسكران في الشارع حتى أصل إلى البيت.صوت حركة وجلبة في المنْزل. أشعر بالخطر، وأفكر في الهرب. ثمة جريمة قتل واستجواب. أتذكر فجأة أني نجوت من ذلك الاستجواب بأعجوبة، فكثيرًا ما فكرت في الكذب على ذلك الضابط الذي لا أتذكر ملامحه من شدة الظلام، كل الأسئلة كان لها أكثر من إجابة. أتذكر أنني لو كذبت لذهبت وراء الشمس، فعلاً الصدق منجاة. كنت على وشك الكذب عندما سألني عن مصدر تلك التسجيلات الملعونة. كنت سأكذب بطريقة دراماتيكية وأقول إنني من سجل هذه التسجيلات لمجموعة من أصدقائي، كنت على وشك قول ذلك، آه لو قلتها. أكتشف أن البشر عادة ما يكذبون بنفس تلك الطريقة التي كنت أنوي اتباعها مع الضابط، إنهم يكذبون عادة ليغرسوا أنفسهم في المصائب غرسًا، كان أبي يقول لي إذا أردت أن تسقط في المهالك والفخاخ تحرى الكذب. كم من فخاخ ومهالك يوقع بها البشر أنفسهم.

"هاني"... صوت أخي.

أنظر بدون تركيز إلى البلكونة، أشعر أنها ستقع فوقي، آه من قلة التركيز، النوم... النوم... النوم.

أصعد السلم كذبابة مرشوشة بالبيروسول، ثم أصل إلى الباب كمن يصل إلى قارورة ماء في الصحراء. أين المفاتيح؟ ثم المقبض يدار. وأدخل. أفاجأ بشخص أعرف ملامحه نوعًا ما. إنه أنا. يا للمرآة البغيضة، عيناي حمراوان وأخاديد عميقة من السواد محفورة تحتها ووجهي يبدو أصغر قليلاً.

– هاني أعمل لك شاي؟

– شاي إيه بس يا أمي أنا عايز أنام.

لم يسألني أحد أين كنت فهم اعتادوا على بياتي خارج المنْزل. أحسد أصدقائي الذين نشأوا في أسر متزمتة، فلو كانوا مكاني لما نام الأب، ولظلت الأم ترتعش في الصالة طوال الليل، على الأقل كانوا سيسألون الغائب أين كنت ولماذا لم تبت في البيت، وكان سيحكي، كان نفسي أحكي، يا لهذه الدنيا الظالمة.

– هاني أنا باكلمك من ٣ ساعات وإنت مش موجود، خير؟ أنا عارف إنه الساعة ٤ الصبح وإنه عيب إني اتصل دلوقت، وإن دي قلة أدب بس اعمل إيه... طمني عليك.

– هاني كتبت سيناريو خطير وعايزك تشوفه، آسف إني باتصل الساعة ٥ صباحًا، بس أنا عارف إن الأنسر ماشين هيفتح لأنكم بتلغو صوت جرس التليفون لما تناموا، عايز أقولك إني هاعدي عليك الساعة ٨ الصبح، عشان نقعد قعدة نظبط السيناريو، مش قادر استنى للصبح، والله نفسي أجيلك دلوقت وأقومك من السرير عشان تشوف اللي أنا كاتبه.

"مين اللي قال إني كنت نايم يا تيوس، لعن الله الأنسر ماشين، يبقى يعدي الساعة ٨ الصبح ويشوف مين اللي هيفتح له، هو أنا شغال عندكو يا ولاد ستين في سبعين"... لحظات وأسمع صوت جرس لا يطاق. لا يوجد أحد في المنْزل. أتمنى لو أستطيع تسجيل رسالة وزرعها في الباب، مثل تلك التي تقول الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقًا، يرجى إعادة المحاولة فيما بعد، ستقول رسالتي المنْزل الذي تطلبه ربما يكون خاليًا يرجى إعادة رن الجرس في وقت

لاحق، ربما يحدث هذا بالفعل في المستقبل والمسألة بسيطة، كل ما هو مطلوب ميزان حراري لتحديد ما إذا كان هناك أشخاص في المنْزل، وإذا ما كانوا نائمين أو مستيقظين، ثم الرسالة تظهر على جهاز مثبت على باب الشقة بشكل ديجيتال، يمر سريعًا على شاشة صغيرة كشاشة المحمول، يوافق ذلك التسجيل الصوتي الذي يخبر الزائر بحالة المنْزل.

ياه يا محمد يا عطية ملعون أبوك على أبو السيناريو...

"افتح الباب"

ونفس الضابط...

أشعر برغبة عميقة في أن تنتابني حالة إغماء سريعة ومباغتة، دون كلام أغلق باب الشقة بالمفتاح وأندفع لمواجهة مصيري المجهول وتحقيقات قوة الأعصاب التي دمرت أعصابي تمامًا، لم أنم منذ ٦٠ ساعة...

سيارة الشرطة ترتجف بفعل الطريق المليء بالمطبات الصناعية والطبيعية، وأنا أرتجف من البرد في اتجاه معاكس.

– خلاص بقى خيلتنا.

أتطلع إلى وجه محدثي فأكتشف أنه أمين شرطة، فعلاً معهد أمناء الشرطة خرّج دفعات ممتازة من أمناء الشرطة، تشعر أنهم اسطمبة واحدة، كأنهم يدخلونهم نفس المخرطة بعد أن ينتهوا من الدراسة الأكاديمية رفيعة المستوى بالمعهد الجليل، ياالله، نفس النظرة والأيدي مقاس ٤٦ والطول الفارع والغلظة وغباوة القلب، إنها مخرطة الداخلية التي يبدو أنها ستهرسني بعد قليل.

– خلاص يا أبو الكباتن إنت بردان ولا إيه؟

– العربية اللي بتتهز أعملكو إيه!

– لأ بس أنت الـ vibration بتاعك عالي أوي.

يضحك زملاؤه ضحكة صفراء.

أتذكر يوم قبض عليَّ في شارع ٢٦ يوليو. كنت بلا بطاقة وألبس جلابية مضحكة. كنت عائدًا من مسجد الشيخ عبد المنعم في البراجيل. يومها فقدنا النقود أنا وصديقي وقطعنا المسافة من البراجيل حتى شارع ٢٦ يوليو مشيًا على الأقدام. كنا ننوي أن نكمل طريقنا حتى رمسيس لكن دورية الشرطة كانت لنا بالمرصاد. المضحك أن المحفظة التي فيها البطاقة سقطت مني قبل دورية

الشرطة بحوالي ٥٠٠ متر فقط. سقطت من جيبي في حفرة صغيرة من حفر كوبري ١٥ مايو ثم إلى النيل مباشرة. المضحك أكثر أن صديقي أحمد فتحي لم يكن معه بطاقة هو الآخر، بل صورة بطاقة كان يحتفظ بها بلا سبب في محفظته. الضابط يومها رفع أكمام الجلابية كي يتأكد أنني بلا ندبات. شكلي يومها كان يوحي بأني مدمن ماكس .فعلاً. جلابية قديمة وبلا تحقيق شخصية وفي وسط البلد والساعة تجاوزت الثانية صباحًا.

- اركب!

دون كلام ركبت ودخلت زنزانة مساحتها متر في متر يقطنها خمسة أشخاص لا أدري كيف، ثم بعد خمس دقائق استدعاني الضابط وحرر محضر فقد بطاقة فوقعت، وأحد فاعلي الخير في غرفة الضابط تدل ملامحه على أنه مرشد أعطاني جنيها وربع بعد أن تأثر بشدة.

- إيه اللي إنت لابسه ده؟!

- جلابية.

- حد يلبس جلابية ويمشي في وسط البلد، كنت جاي منين؟

- من عند ناس قرايبي.

– منين قرايبك دول؟

– من إمبابة... البراجيل.

خفت وقتها إني أقول إني راجع أنا وصديقي من رحلة اعتكاف في المسجد كي لا ندخل في سين وجيم.

– وجاي من هناك مشي على كده؟

– أيوه.

– ليه؟

– معييش فلوس.

– إزاي! إنت منظرك محترم وجامعي؟

أجبت كمن يتقيأ:

– ضاعت.

– ضاعت ولا اتسرقت؟

– ضاعت.

– فجيت أنت وصاحبك من البراجيل مشي؟

– هو ده اللي حصل.

– وماشي من غير بطاقة ليه؟

أجبت كمن يتبرز:

- ضاعت.

- قول لنا بقى إنها ضاعت على كوبري ١٥ مايو قبل ما تشرف الكمين؟

كيف عرف!!... أحيانًا تكون الحقيقة فوق مستوى الخيال.

- لأ طبعًا يا باشا، الدراما لا يمكن توصل للدرجة دي، إحنا مش فيلم عربي، لا هي ضايعة من فترة وأنا باعمل واحدة جديدة.

- طب امضي ع المحضر.

يعطيني فاعل الخير الجنيه وربع. أستلم النقود كمحصل النور ثم إلى الفراغ.

أتفاجأ بصديقي منتظرًا عند باب القسم فأنطلق معه إلى ميدان رمسيس وكأن شيئًا لم يكن، وبعد خطوات من القسم صديقي أحمد فتحي يتأكد من تجاوزنا جميع الخيالات المنتشرة بفعل أعمدة الإنارة الكثيفة حول القسم، ثم يدخل في هيستريا ضحك لا تنتهي، وعدوى الضحك تنتقل إلي لتصبح أصوات ضحكاتنا كخيالات على مباني وسط البلد. هذه هي الحياة، قبل ساعة صدمة ضياع

النقود ثم صدمة الحل الإجباري بالمشي حتى رمسيس ثم صدمة ضياع المحفظة ثم صدمة الكمين ثم صدمة ركوب سيارة الشرطة لأول مرة في حياتي ثم صدمة الزنزانة، ثم الفرج يأتي من قلب الجحيم. نستطيع الآن أن نشرب سوبيا في رمسيس كعادتنا المفضلة بعد الرحلات الطويلة، ثم ها نحن أولاء مندمجين في هيستريا ضحك قد لا تنتهي حتى نصل إلى رمسيس. الفرج يأتي من قلب الجحيم في الغالب وتلك هي المشكلة. من يستطيع الصبر حتى يأتي الفرج. أحمد فتحي يقول لي وسط دموعه "كنت خايف أوي يا هاني لما ركبوك البوكس".

كنت خائفًا بالفعل. لماذا لا أشعر الآن بالخوف رغم أنها نفس الظروف تقريبًا بل أسوأ، تدب القشعريرة في بدني عندما يأتيني خاطر كسلهوب النار بأنني قد أتهم في جريمة قتل.

– انزل يا خويا!

أستفيق بصعوبة من خيالاتي وأشعر أنني ربما فقدت غريزة الخوف لأنني فقدت أحساسي بالواقع تقريبًا، لم أنم منذ ثلاثة أيام.

– خير يا حضرة الضابط؟

– أنا قلقان يالا من موضوع التسجيلات ده، إنت اللي كنت بتسجل ياد؟

– لا والله يا بيه.

– هنشوف كله هيبان، بس أنا حاسس إنك إنت اللي كنت غاوي تسجيلات وكنت بتسجل للقتيلة.

– إنتو اتأكدتوا إنها اتقتلت يا باشا؟

– لا لسه، بس أكيد لأن مفيش حد بينتحر بالسم يا خروف!

– أكيد.

يلبسه جن العصبية فجأة كما هي طبيعة الضباط:

– أمال الواد ابن الزانية اللي جوه بيقول إنه ميعرفكش ليه؟

أتساءل بصدق:

– مين الواد اللي جوه سعادتك؟

– سي كمال... تعال يا خويا.

غرفة التحقيقات مرة أخرى والظلام الدامس يكتنف المكان، ونور ضعيف ينبعث من مصباح يتحرك عبثًا في اتجاهين متعاكسين، ومكتب الضابط يبدو عميقًا في الأرض كما كان مدقوقًا أو

موضوعًا بعناية شديدة في حفرة حفرت له خصيصًا. من يتكر لهم مثل هذه الأجواء المخيفة؟ لو ارتكبت أنا جريمة ثم جلست في هذا المكان لدقائق لاعترفت على الفور بما فعلته وما لم أفعله.

كمال يجلس شاحبًا على شيء يشبه صناديق المياه الغازية، كان محدقًا في الأرض عندما فُتح الباب عليه فجأة ليدخل الزنزانة شاويش قائلاً:

- قوم يا ابني تعالى.

قام من مكانه بلا اكتراث ثم بنظرة خاوية اختبر ملامحي، وكأنه يحاول التعرف علي، وعلى ما يبدو فقد نجح أخيرًا في ذلك فارتاحت أعصاب عينيه، قدمني الضابط إليه:

- أهو زميلك اللي اعترف عليك.

يرد كمال سريعًا:

- اعترف عليا إيه... أنا معرفوش!

يصرخ الضابط:

- إنت بتكررها تاني يا ابن القحبة؟

يواجهني الضابط بعيون نارية:

– يعرفك ولا ميعرفكش؟

– هو فعلاً ميعرفنيش يا باشا!

– نعم يا روح أمك إنت وهو؟! شكلكوا هتتجننوا أمي النهاردة، إزاي متعرفوش يا بني؟

أرد كطفل:

– أنا اعرفه لأن سوزي كانت بتتكلم عنه، إنما هو فعلاً ميعرفنيش.

– يعني ما شفتوش بعض قبل كده؟

– شفته قبل كده مرتين.

– آه وإنت شفته وهو ما شافكش؟ على أساس إنك كنت لابس طاقية الإخفا!

– لا هو شافني.

لكمال:

– أمال إنت بتقول إنك ما تعرفوش ليه يا ابني؟

– لأني معرفوش فعلاً، ده أنا حتى لسه مميز شكله حالاً.

– يعني ما تعرفش إن اسمه هاني؟

– لا... أول مرة أعرف.

- كويس أديني عرفتك عليه.

ينظر كمال في الأرض فيلتفت الضابط إلي سريعًا:

- أوعى تكون إنت كمان ما تعرفش اسمه!

- لأ أعرفه يا بيه.

يدور الضابط في مكانه كالنحلة ثم يضرب المكتب بعنف:

- إنتوا بتشغتلو إيه؟

في صوت واحد سريع:

- طلبة.

- طب بصو يا طلبة..تدخن يا هاني؟

ينقلب الضابط فجأة إلى شخص هادئ.

- ماشي يا افندم.

ثم إلى كمال بنظرة جانبية:

- بتدخن يا افندي؟

يمد كمال يده دون كلام ليأخذ سيجارة.

- دلوقتي سيادتك يا هاني بيه مسجل تسجيلات مريبة بتقول إنك ناقلها من تليفون سوزي اللي هو مالوش أثر، وده في حد ذاته شيء

مريب يضطرني للتحفظ على سيادتك والأخ اللي قاعد قدام معاليك، إنت قلت إن كان فيه خلافات بينه وبين القتيلة، وهو اعترف لي بالكلام ده، يبقى أنا مضطر للتحفظ على جلالته إلا لو فيه حاجة جديدة عايزين تقولوها.

ينظر كلانا للآخر دون أن يتكلم أي منا.

– خلاص يبقى هتونسوا بعض إن شاء الله في الأوضة الصغيرة اللي كان الافندي قاعد فيها.

كنت أود مقاطعته بيد أنني تراجعت في اللحظة الأخيرة فلم يكن لدي شيء أقوله. استسلمت بسهولة للأيادي الغليظة فيما كان كمال قد سبقني إلى الزنزانة الصغيرة على حد قول الضابط. بدا كما لو أن علاقة من الألفة نشأت بين كمال والزنزانة. يبدو محاربًا هذا الشخص... ثم سمعت صوت مفتاح ضخم يدار في كالون مزعج لتبدأ مرحلة جديدة من حياتي خلف القضبان.

٩

التاسعة والنصف صباحًا، أنا وكمال قابعان بزنزانة تَسع لنصف شخص، لماذا لم يبنوا الزنازين أوسع من ذلك، من الوارد أن تكون مساحة الزنزانة عشرة أمتار مثلاً، أفكّر في أن تلك الزنازين موجودة بالتأكيد في مصر فقط، فلا يمكنني تخيل أن مثل تلك الزنزانة موجودة في أمريكا ويمكنني استثناء جوانتانامو.

أنظر لزميلي في جُحر الفئران الكئيب الذي أنا فيه، فأشعر أن الحياة مسرحية هزلية، فها أنا ذا جالس في مساحة لا تتجاوز مترًا مربعًا بمشاركة واحدة من أكثر الشخصيات التي لا أطيقها رغم معرفتي المتواضعة به، هل كان يمكنني تخيل ذلك، هل كان يمكنني تخيل أنه يمكن لإنسان الجلوس في مساحة لا تتجاوز مترًا مربعًا، وهل كان يمكنني تخيل أن أكون أنا ذلك الإنسان الجالس في هذه المساحة بمنتهى البساطة، وهل كان يمكنني تخيل أن شريكي في مثل هذه المساحة سيكون كمال؛ ذلك الشخص الذي لا أعرفه تقريبًا رغم حالة عدم الارتياح المتبادلة بيننا، ذلك الشخص الذي كنت أدمن

سماع تسجيلات له على تليفون سوزي، ثم زاد معدل الإدمان لأنقل التسجيلات من تليفون سوزي لتليفوني دون أن أخبرها، ثم تعاظم معدل الإدمان لدرجة مغافلة سوزي وأخذ تليفونها لسماع جديد التسجيلات ونقلها على تليفوني الخاص. كانت سوزي مستغربة للغاية من اهتمامي بتسجيلات ذلك الآدمي الراقد أمامي بلا حياة، ثم توائمت بمرور الوقت مع حالة إدمان التسجيلات التي كنت منغمسًا فيها لدرجة أنها كانت تتفضل مشكورة بإسماعي الجديد والفريد من تسجيلات كمال المعتبرة.

كان الأمر قد تحول إلى لعبة لدرجة أن سوزي كانت تتصل بي خصيصًا لتخبرني أن لديها تسجيلاً جديدًا، وكنت أنا على استعداد تام لهضم المسافة بين منْزلي ومنْزلها لسماع التسجيلات الجديدة لنفس الشخص الجالس معي الآن في زنزانة أصغر من الحمامات العامة بعد مقتل سوزي نفسها، لماذا لم أنتبه للملحوظة التي قالتها سوزي يومًا وهي أن إصراري الشديد على سماع تسجيلات ذلك الشخص الذي لا أعرفه يعني أن حدثًا مهمًا سيجمعنا، أو أننا

سنصبح أصدقاء أو شيء من هذا القبيل، ها هو الحدث المهم يجمعنا الآن، هل هناك ما هو أهم من ذلك.

سأبوح بحبك للريح وللأشجار

"يهذي كمال شعرًا"

وربيع شهواني أسود في عينيها يدعوني

يا فاطمة... أراكي الآن

صوتًا في القلب

وأحيانًا بضعة أصوات

"يهذي كمال"

صوت الشاعر يعلو منتحبًا فوق نحيب الكورس

"يهذي كمال"

يا أيها الطفل الذي صنعته قصتي

كن كما كنت

ولا تكن كما كنت أنا

"ما زال يهذي"

يخترع الوقت إطارًا للخنق

تخترع حبيبة قلبي قتلاً للعشق

أخترع أنا نفسي والموت

"يصر على الهذيان"

يبدو أنه قضى هنا ليلة أسود من الفحم.

تركني الضابط في الرابعة صباحًا، ربما استدعوه في الرابعة والنصف مثلاً بعد أن اعترفت عليه كما يقول الضابط، أشعر برغبة عظيمة في البكاء واستغرق في وسواس يفترض أن الزنزانة تضيق بمرور الوقت لدقائق ثم استفيق على حركة في الزنزانة، ربما استيقظ ذلك المأفون، هل يعلم أنني كنت أستمع إلى تسجيلاته، وماذا لو علم؟ لن يفعل شيئًا، وهل للمسجون إرادة، إنه لا يستطيع المشي في الفضاء لمترين فكيف يمكن أن يفعل أي شيء، الناس في الزنازين عبارة عن عبوات محفوظة من الإنسانية بلا تاريخ صلاحية ولا يمكن تحرير هذه الإنسانية إلا مع النور والحرية، يخرج المواطن من السجن فتنفتح العلبة المحفوظة تلقائيًا وينطلق الإنسان الجديد، أريد أن أنطلق أنا وكمال، أشعر بالتوأمة معه الآن، لقد صرنا متلازمين،

وكيف لا، وأنا لا أستطيع تحديد ما إذا كانت قطعة اللحم التي أمسكها الآن هي لقدمي أم لقدمه... يصحو كمال على ما يبدو، يسأل:

– إنت قلت للضابط على الخلافات بيني وبين سوزي؟

– أيوه.

– ليه؟

– هاكذب من غير سبب، أنا ما اعرفكش، إزاي أحميك بالكذب؟

– مادمت ما تعرفنيش... ليه جبت اسمي؟

– كان تحقيق.

– قول إنك كنت خايف.

– فعلاً الموقف نفسه كان غريب عليا، وما فيش حد يقدر يكدب على الحكومة، إنت هنا من إمتى؟

– من ست ساعات تقريبًا.

– الظاهر إنهم بهدلوك.

– أنا أول ما جيت والضابط قال لي إن سوزي ماتت ما دريتش بنفسي وحسيت إن الدنيا بتلف بيا، الصدمة خلتني أنفصل عن

الواقع تمامًا، فضل الضابط يسألني وأنا ما أردش عليه، الحاجة الوحيدة اللي كنت حاسس بيها دموعي.

عيناه تدمعان، يواصل:

– لَمّا باب بيتي الدق عليه اشتغل؛ كنت عايم في الأرق بسبب سوزي، كنت بافكّر في اللي حصل بيننا، ولَمّا الضابط قال لي إنهم عايزني شوية ما استغربتش، لبست هدومي عادي جدًا وكأني رايح رحلة، كنت عارف إن الموضوع ليه علاقة بسوزي ولما كنت راكب البوكس كنت بفكر فيها، وأول ما دخلت القسم الضابط قال لي إن سوزي ماتت.

كان يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه، وكان واضحًا بالفعل أن دموعه عزيزة لكن عيناه بدتا على الرغم منه ككرتين من المطاط تعومان فوق بحر من الدموع، كانت الهالات السوداء واضحة تحت عينيه والحزن المفاجئ يلمع فوق وجهه كزبد البحر، بدا لي شكله واضحًا هذه المرة، وللمرة الأولى أشعر أن بوجهه وسامة وغموضًا. كما كانت تقول سوزي.

- ما كنتش أتخيل إن ده يحصل، وما كنتش اتخيل إنه يحصل بعد النهاية المأسوية لعلاقتي بسوزي. سألني الضابط مجموعة من الأسئلة السخيفة وأنا ما اردش، يا ابني أنا بكلمك رد عليَّ، كنت أبص له وما أردش، نزل عليَّ المخبرين ضرب، وأنا مش قادر حتى أصرخ، كنت بحاول السيطرة على دموعي، الضابط حاول معايا كتير لكن كل المحاولات فشلت، كان فيه حالة واحدة مسيطرة علي، بعمل فيها حاجتين؛ النظر في الفراغ ومحاولات للسيطرة على دموعي، الضابط في النهاية افتكر إني فقدت النطق فأدالي شاي ودخان، وبعد ست ساعات من المحاولات وجرادل الميه قلت له المطلوب.

١٠

لم يكن هناك أي سبب يدعوني للتعامل معه بقسوة في ذلك الموقف، في السجون لا توجد قسوة ولا حزن ولا امتلاء ولا مشاعر دفينة، توجد مشاعر لا يعرفها سوى أولئك الذين سبق لهم التجربة، كانت الجدران كئيبة كما لو أنها تشاركني الأحزان أنا وشريك

غرفتي الليلية، فيما كان الظلام يصنع مع ذلك كله حالة غرائبية تقع إلى الوسط ما بين نطق حكم الإعدام وتنفيذه بالنسبة إلى يتيم يعشق النور والصخب مثلي. كنت تقريبًا لا أرى كمال، اكتشفت كم هو غريب أن تسمع شخصًا دون أن تراه، رؤيتك للشخص الذي تتكلم معه تكمل حالة التواصل بينكما بشكل من الأشكال، لعلاقة ما تربط الحواس السليمة للإنسان، كنت في الماضي أستغرب تأثير غياب نظارتي الطبية على حاسة السمع، لكن الزنزانة الآن أعطتني الجواب، من الميزات الأصيلة للإنسان أن عقله لا يتوقف عن التفكير مهما كانت الظروف مصرة على إطفائه.

شعرت أن عينيَّ على وشك أن تُقفلا لكن العقل القلق لا يرضى بالرضوخ في مثل هذه الأجواء التي تلهج باحتفالات الموت، دهشتي الكبرى كانت لأن حزني على وفاة سوزي لم يعد قادرًا على المرح في كينونة قلبي الضعيف، ربما يحدث ذلك كله بسبب الظلام الذي أنا عالق فيه، أدركت الآن بالتحديد معنى الظلام الحقيقي وتأكدت أني لم أواجه ظلامًا قط، تحسست يدي كل الاتجاهات علني أفيق من تلك التأوهات الهاجسية، حتى شعرت بقدمي كمال الذي انطلق في موجة أخرى من التداعي الحر.

"كان يوم الحادث مشئومًا من البداية، شعرت بمنتهى الإهانة عندما تدخلت نهال صديقة سوزي وصديقتنا المشتركة أحيانًا في الجامعة؛ وكلمتني باعتباري عاشق ولهان يائس ينتظر عطف أميرة الأميرات، كنت مصعوقًا عندما كلمتني بهذه الطريقة؛ لأن تلك لم تكن الحقيقة على الإطلاق".

– إنت عرضت عليها حبك وهي لسه بتفكر، راقب من بعيد، وهي هتعيد التفكير وهترجع لك.

لستُ أنا من يقال له مثل تلك الجمل، كنت أريد إثبات أنني لستُ في هذا الموقف، وبعدها فليذهب كل شيء إلى الجحيم.

– هي حاسة إنك عاوز تفرد عضلاتك عليها.

– والدليل؟

– إنت قاعد تحاصرها بأسئلة غريبة، وبتفرض سيطرتك قدام أصحابك.

– إيه الكلام الغريب ده، أنا عمري ما فكرت في كده!

تركتني نهال على نار بعد أن مزقت أحشائي بسيوف من كلمات، كان شعوري بالإهانة مضاعفًا بطريقة لا يمكن تخيلها. كنت لا

أستطيع الانتظار. دمي يغلي في عروقي. لابد وأن تعرف نهال الحقيقة، الموضوع ليس كما قالت صديقتها.ربما يكون العكس هو الصحيح، هي من عرضت حبها عليَّ دون أن يكون لي أي قدر من السيطرة على الموقف، سأقول لها إنني لا أحبها، وأكشف لها أنها هي التي عرضت عليَّ حبها وليس العكس، هي التي تكلمت معي في شكل علاقتنا على الرغم من أنني لم أكلمها عن ارتباط من أي نوع، هي التي كلمتني، لابد أن تصدقني.

الآن وأنا لا أحصد سوى العجز والخيبة لا أعرف ما سر هذا الإصرار العجيب على أن تعرف نهال الحقيقة، ما كانت فائدة ذلك؟! إنه الشيطان،كنت قررت قرارًا نهائيًا لا رجعة فيه؛ أن أذهب إلى النادي الليلي الشهير المسمى steel لكي تعرف نهال الحقيقة، لا أطيق أن يقال عني مثل هذا الكلام، ما الذي قالته سوزي لنهال حتى تقول كلامًا يشبه كلام أمهات السينما المصرية.

لقد خدَعتها دون شك، وقالت لها إنني عرضت عليها حبي وبكيت وندمت وقدمت فروضًا للطاعة والولاء. إنها خدعة الأنثى المشهورة التي تصر على أن ذَكَرها جاب الأرض حافيًا عريانًا حتى ينال الرضا، مع أن الذي يحدث هو العكس في أغلب الأحيان.

منذ مواساة نهال لي وحتى الخامسة عصرًا وأنا في حالة من الغليان، لو بقيت لثلاث ساعات أخرى دون تحرك لانتهيت، وفي السادسة كنت اتخذت القرار؛ قررت أن أذهب إلى ذلك المكان المجهول بالنسبة لي وأنا في كامل أناقتي، قميص formidable وبنطلون جينـــز أسود ثم البارفان، ثم لابد من الذهاب لسامر.

في الطريق إلى منْزل سامر انتهز الشيطان الفرصة ليوحي لي بسيناريو آخر محكم، ماذا لو صالحتها، وكافأت نفسك على ذلك بجلسة عشاق ساخنة في ظلام النادي الليلي. أنا واثق أنها ستستجيب لمراواغاتي، لابد من اكتشاف الأمر بشكل عملي. يالها من مغامرة، كنت قد وصلت إلى منْزل سامر.

– على فين العزم يا روميو، مالك يا ابني عامل ليه كده زي أبطال المسرحيات الرومانسية القديمة؟

يا له من تشبيه...

– عندي مشوار..

– فين؟

– عايز البارفان بتاع المقابلات اللي أبوك جايبه للسكرتيرة.

- وإنت برضه رايح تقابل السكرتيرة؟ شكلك كده رايح للسكرتيرة!

كنت ذاهبًا بالفعل للسكرتيرة، ولما كان النادي الليلي بعيدًا؛ فلقد استغرق الأمر ساعة ونصف. عند الثامنة تمامًا كنت عند بوابة الديسكو الغامض، ظللت أحاول الدخول لمدة نصف ساعة، وعندما كانت تفشل محاولة كان إصراري على الدخول يزيد، لابد وأن تعرف نمال الحقيقة، لابد من اختبار حسي لسوزي، ليتني امتثلت لإرادة الله وعدت من حيث أتيت. كل شيء في هذه الحياة صندوق مغلق لا يعرف أحد ما بداخله، كل ما بوسعنا أن نضع افتراضات وتصورات، الحقيقة الكاملة لا يعلمها إلا الله، إنه يرشد قدميك للاتجاه الصواب، فيما يرشدك عقلك على الدوام للاتجاه الخطأ.

كانت تنتظرني مصيبة في الداخل، لكن من أين لي أن أعرف!!

١١

كنت أظن أن الخير كله في انتظاري داخل نادي steel، لابد من العبور إلى جنة راحة البال وراحة القلب... سوزي ونهال.

عند البوابة حدثت مشاجرة، كان الرجل الجالس على الباب مُصرًا على منعي أنا بالذات من الدخول مهما كانت النتائج، لأنني لست من رواد النادي، رغم أنني أبديت استعدادي للدفع ببذخ. المشاجرة ألهت الجميع ودخول متأخر غير محسوب، يا لذكائي.. يا للشيطان.

كان هناك منظر بعيد لأضواء تتلألأ لكافيتريا تقع على مسبح، من بين تلك الأضواء تصاعدت نهال كالشيطان. صافحتني بحرارة، كنت على وشك قول شيء قبل أن تقاطعني مشيرة إلى ظل يتقدم باتجاهي بتؤدة.. سوزي. حديث خافت بينها وبين صديقة لا أعرفها، لم أسمع منه سوى كلمة "متخانقين"، لم أرَ وجهها جيدًا، كان الظلام حالكًا لكن يدي عرفت طريق يدها بسهولة...

– إزيك يا كمال؟

– إزيك يا سوزي؟

ثم جلست في نفس المكان، كانت الطاولة محاطة بأربعة كراسي وعندما جلست كان الجميع قد اختفوا فجأة، ثم بعد ذلك عادت نمال وإحدى صديقاتها.

– أعرفك... كمال.

– عارفاه.

للمرة الأولى أعرف أنني مشهور إلى تلك الدرجة، كان اسمها ولاء. بدا واضحًا أنها محملة بمشاعر عظيمة من الكراهية تجاهي، ما الذي قالته سوزي عني لصديقات لم أتشرف بمعرفة إحداهن، كان الجو معبأ بخليط من التوتر والاستفزاز، وعندما فتحت لعيوني مجالات جديدة للرؤية كانت سوزي تحت شجرة من الظلام، برفقة شاب طويل القامة يلبس معطفًا من الجلد، كانت تقف إلى جانب من الشجرة وهو يقف إلى الجانب الآخر، فيما أنا على بُعد خمس خطوات أراقب.

لم أدرِ لَمَ شعرت بغيرة عظيمة. الظلام الكالح والشجرة الكثيفة والوقفة الغريبة على جانبي الشجرة وملامحها الواثقة؛ كل ذلك ربما صنع إيحاءً خاصًا جعلني أرتبك من الغيرة، كان أطول منها بكثير،

غيرت اتجاهاتي البصرية كي أشفى من ذاك المنظر ولو بشكل مؤقت، ثم فجأة وجدت الجميع قد اختفوا لم تعد هناك نهال ولا ولاء، وعندما عدت لنفس نقطة الغيرة مرة أخرى كان الطفلان الصغيران تحت الشجرة قد اختفيا. كانت هناك أغنية تدور في الأرجاء بينما كان عقلي يدور في اتجاه آخر.

عادت سوزي بعد نصف ساعة تقريبًا، وقفت على الجانب الآخر من الطاولة التي أجلس عليها، كنت قد قررت مواصلة اللعبة للنهاية.

- مفيش عزومة صغيرة؟

- لا معييش فلوس.

- أنا ضيفك.

هزت رأسها وانطلقت في الظلام.

ظللت جالسًا على الطاولة بمفردي. كنت قد قررت المشاهدة حتى آخر نفس بعد أن تركني الجميع. وعندما نظرت للوراء وجدت مجموعة من الصيع كما أوحت لي وجوههم، طلبت من أحدهم سيجارة فرفض في البداية ثم أعطاني بعد حوار سخيف.

كنت أدخن تلك السيجارة بعنف عندما أخبرتني صديقة لسوزي أن والد سوزي قادم حالاً، وأن ثمة مشكلة ستحدث إذا وجدني معها، لكنني سخرت منها وقلت لها إن شرفًا عظيمًا سيحيطني لو قبل والدها وتعرف على شخصي، كانت قبلها قد زارتني على الطاولة وجلست قليلاً بمواجهتي، طلبت مني بصوتٍ عال:

– لو سمحت اطفي السيجارة.

– لسه ما بطلتش.

كانت متوترة في ذلك اليوم، أو أنها في العموم شخصية متوترة، بعد لحظات من جملتي الساخرة تركت الطاولة وذهبت لتعود بحوار الأب الحاضر الغائب بعد قليل. إنه الصلف.

ثم حانت لحظة الحقيقة عندما شرّفت سوزي المكان، وقبل ذلك كان أحد أصدقاء طاولتها المتميزين بسحر المروءة والشهامة قد طلب مني بتبجح وصفاقة نادرة أن أترك الطاولة لأنها – سوزي – لا تريدني، ولأنهم جميعا لا يريدونني، قال لي:

– من الأخر هي لا تريد رؤيتك.

– هي ولا إنت؟

- اتفضل امشي لو سمحت.

كنت أحسُّ في هذه اللحظة بالمهانة، وقد أغرقتني فجأة كما يغرق طست الماء الثلجي البدن، وعندما كنت على وشك الانصراف وجدت نفسي واقفًا أمامها...

- ممكن دقيقتين على انفراد؟

- الكلام اللي عاوز تقوله قوله قدامهم.

في تلك اللحظة تحول طست المهانة البارد إلى حقل من المهانات، لكنني لم أكن قادرًا على تحريك أصابعي للأمام، وبعد أن كان خدر الصدمة يسيطر على جسدي؛ قطعه واحد من أولئك الجيران الذين أعطوني عامودًا من الدخان ماركة ميريت.

- على فين؟

- ماشي..

- إيه اللي حصل؟

حكيت لهم جميعًا ما حدث. أقنعني أحدهم أن سوزي لا تستحق سوى الانتقام والتنكيل لتكون عبرة، وأنه شخصيًا فعل ذلك مع فتاة فعلت نفس ما فعلته سوزي معي.

ما أوقع سيناريو الانتقام وأنت تغلي من الداخل، كنت في تلك اللحظة تحديدًا أشعر بالعجز، وعندما رقص أمامي احتمال فعل شيء أسترد به كرامتي المهدرة وأطفئ به غلياني العميق؛ شعرت برغبة عظيمة في مواصلة الاستماع لدرس الشيطان. الانتقام فعل جنوني ولا يقوم به الكثيرون لأنهم لا يملكون السيناريو المحكم للانتقام دون خسائر... سألني أحدهم أسئلة عميقة عن علاقتي بسوزي، كان أكثرهم وسامة وعلى ما يبدو كان يحتل مرتبة الزعامة في هذه المجموعة:

– اسمها إيه؟

– سوزي.

– تعرفها من إمتى؟

– من سنة.

– أبوها بيشتغل إيه؟

– رجل أعمال.

– أمها؟

– ست بيت.

كنت أجيب على الأسئلة كالتلميذ لمجرد أنني شعرت أن هذا الشخص ربما يساعدني بطريقة ما لاسترداد حقي المهدور وكرامتي المبعثرة، وعندما تخمرت فكرة الانتقام ووصلت إلى ذروة دماغي كان زعيم بروباجندا الانتقام يحاول إثنائي عن الفعل المخرب، كالشيطان يدس الفكرة المسمومة في رأسك ثم يعلن لك أنت نفسك عدم مسئوليته عما فكرت به، وفي نفس الوقت الذي تأكد فيه رفيقي المسموم أنني ذاهب إلى قدري الغريب؛ وضع في رأسي نصيحته الأخيرة:

– ولا تفكر في أي حاجة، أنت قررت والموضوع انتهي.

كانت قدماي اتخذتا القرار بالفعل، وعندما بدأت التفكير في استراتيجية للبحث عن سوزي كانت هي قادمة نحوي بصحبة صديقتها هال، كانت مسرعة باتجاهي عيناها دامعتان على ما يبدو.

شعرت في تلك اللحظة أن عينيَّ كمال أصبحتا بفعل القصة الكئيبة التي يحكيها؛ مغرورقتين أيضًا وبدت حروفه باكية وهو يواصل:

– سألتني سوزي إنت بتعمل إيه ؟ لكن أنا كنت عامل زي خيال مآتة. مش عارف ليه مسكتها من هدومها، كانت المهمة محددة وليكن ما يكون، يمكن عملت ده من باب تشجيع نفسي.

بدا لي كما لو أن كمال يغسل إثمه الكبير باعترافه الطويل المفصل. كان صوته عميقًا كما لو كان صاعدًا من بئر، وحروفه كعصافير سوداء تحوم حول جلسة الاعتراف التي ألعب أنا فيها دور القديس، كنت أستطيع تمييز انفعالاته بوضوح رغم حالة الإرهاق والتعب الشديد التي أمر بها.

في الظلام كانت هيستريا كمال الاعترافية تصنع حالة روحانية غريبة لم أشعر بمثلها طوال حياتي. كنت أراه كخيال لكنني كنت أسمع صوت دبيب روحه في كل كلمة قالها.

كانت الساعة التاسعة صباحًا على ما أعتقد، ولم نكن في زنزانة بالمعنى المفهوم، لكنه على ما يبدو كان مكانًا زائدًا عن الحاجة يُحتجز فيه الأشخاص الخطرين إذا ما كان الأمر متعلقًا باستجوابهم أو محاولة الحصول على اعتراف.

قال لنا الضابط إننا لسنا محبوسين، ولكننا فقط محتجزين حتى إشعار آخر. كنت بدأت أعتاد الوضع، وكان صوت كمال الباكي يصنع حالة من الشفافية يغذيها ذلك الظلام الكالح. كان صادقًا فعلاً. كانت حالة التعاطف مع رفيق الاحتجاز قد بدأت تتسلل كأشعة الشمس إلى نوافذ الروح.

ارتحت لبرهة فكرت خلالها في أحوالي، هل اكتشف الأهل في البيت أن غيابي بسبب استدعاء من الشرطة؟، لم أفكر في ذلك كثيرًا باعتبار أن عودتي إلى المنْزل صباح اليوم كفيلة بطمأنة كل من كانوا فيه، لقد رأتني أمي هذا الصباح وعرضت عليَّ كوبًا من الشاي بعد غيابي لثلاثة أيام عن الدار، وعندما جاءت القوة في الصباح لاقتيادي إلى استضافة إجبارية سلطوية مظلمة؛ كان الجميع قد ذهبوا بالفعل في رحلة يومية للبحث عن الشقاء والطعام، وعذابات أخرى صغيرة.

ربما تكون المدينة وسرعة الحياة هذا الشيء الخاص بالآدميين. فها هي الحياة تعطيني احتمالاً كارثيًا يقول بحروف من معدن إنني قد أفقد أو أموت دون أن يعرف أهلي لمدة أسبوع على الأقل.

كان الخاطر من نوعية الخواطر التي تنتهج نوع الدراما المسمى بالكوميديا السوداء. في الماضي كان الناس يأكلون ويشربون ويعيشون سويًا، وكان أفراد العائلة يلتقون في اليوم مرات، ولم تكن هناك أشغال استثنائية أو عذابات استثنائية، كان كل شيء يسري في سلامة وهدوء في بحر الحياة الطازجة التي لا تتوقف عن التأني، أما الآن فلا شيء سوى العزلة، يمكن أن أطمئن بسهولة أنهم

ليسوا في حالة من القلق، فهم الآن يعتقدون بالتأكيد أنني في منْزل أحد أصدقائي أو في مكان آمن، لكن كيف يمكن أن أطمئن أنا على نفسي، وأنا أقبع الآن في مترين من الظلام داخل محمية طبيعية تمتلكها السلطة التنفيذية.

يا لزخرفة القدر، إنه يحمل للإنسان كل الغرائب والمفاجآت دون وجود للمنطق في بعض الأحيان. كان سكوت كمال قد طال قليلاً، وبدا كما لو أنه طفل صغير في حالة شديدة من الحزن نفثها في البكاء الحار ثم نفدت طاقته فاستسلم للنوم.

عاد ليكمل فجأة:

- فوجئت بعدد كبير من الناس بيحاصروني. فرد الأمن أنقذني وخرجت من المكان حاسس إني كنت في حلم، ولا حتى حسيت بنفسي وأنا بجري في طريقي للبيت، كنا في نص الليل ولقيت نفسي رايح لسامر.

ابتسمت ابتسامة خفيفة لم يلحظها كمال بالتأكيد، فها هو قد أتى أخيرًا باسم صديقه الذي كان حاضرًا في التسجيلات...

- صاحبك صوته وحش ؟

– عرفت إزاي ؟!

– مجرد تخمين.

يكمل كمال:

– سامر كان سعيد باللي حصل.كان حاسس بالفخر للعمل البطولي اللي قمت بيه.كان بيحب الإثارة والعنف، وأنا أديتهم له على طبق من فضة.كان متغاظ قوي لما بلغت الحكاية ذروتها، وعاملتني سوزي بجفاء، وأحرجتني قدام أصحابها ، لكنه كان مبسوط جدًا لما وصلت المسرحية الهزلية للفصل الأخير، صفق بحرارة.كنت حاسس بالاكتئاب رغم ده كله، وصديقي عزمني على العشا في بيته كمكافأة بسيطة علي الحماقة العظيمة اللي عملتها، كلت من غير حماس زي الطيور. طول اليوم حسيت بالاكتئاب لكن كنت واثق أن الموقف في اتجاه الحل.

رجعت البيت لقيت كل شيء باهت.

١٢

كان منْزل سوزي يقع في منتصف تلك المنطقة الفارهة الشهيرة على طرف من أطراف القاهرة، وكانت والدها سيدة أرستقراطية من أصل وضيع، وكان ذلك واضحًا في طريقتها في التعامل، فيما كانت سوزي أرستقراطية خالصة، كان نظام المنْزل جنائزيًا، إذ يقع كل شيء في مكانه، وحالة الهدوء العامة تصنع نوعًا من الكآبة يتضح بمرور الوقت.

البيت مبني على الطراز الأوروبي، فالحمامان موجودان واحد للضيوف وآخر لسكان المكان، والمنْزل مبني على مستويين؛ مستوى لاستقبال الضيوف ومستوى يعلو قليلاً للمعيشة، وعندما يمشي أحدهم في الممرين سيعتقد أنه في عنبر إحدى المستشفيات، خصوصًا مع رائحة تشبه المطهر أذاعتها الأجواء. السلالم الصغيرة تصنع وسيلة للربط بين المستوى السفلي والآخر العلوي، الذي يعج بالغرف ذات اليمين وذات الشمال. الأم استضافت نظيرها في غرفة داخلية يبدو أنها مخصصة لاستقبال الضيوف الخطرين أو لحل المشكلات.

بعد العبارات الاحتفالية والمجاملات والترحيبات كان على السيدتين؛ أم سوزي وأم كمال الدخول في الموضوع.

– طبعًا إنتي معرفتيش إيه اللي حصل يوم الخميس اللي فات؟

– لأ... خير؟

– كمال مقالكيش؟

– خير؟

– كمال حاول يعتدي على سوزي و......

– يا خبر إزاي؟!

– هي الحقيقة حكت لي الحكاية وأنا مكنتش مصدقة، أنا كنت واثقة في أخلاق الولد أكتر من كده، سوزي؟

– أيوه يا ماما؟

دخلت سوزي تلبس رداءً ضيقًا أبيض اللون وبنطلونًا من الاسترتش الأسود، نحيفة للغاية، كانت عيونها حزينة مبللة كما لو أنها غارقة في البكاء طوال الوقت، والحبوب تملأ وجهها الصغير الضعيف.

– إزيك يا حبيبتي؟

- إزيك يا طنط؟

- مالها... خير؟

- هي من ساعة اللي حصل وهي الحبوب مالية وشها وقيء مستمر.

- ألف سلامة عليكي يا حبيبتي.

سوزي لا ترد.

- احكي اللي حصل لطنط.

- كمال جه نادي steel الساعة ٩ بالليل. كنت مستغربة من وجوده في مكان المفروض أنا اللي أكون موجودة فيه. الظاهر إنه دخل بطريقة غير شرعية. كان في حالة غير طبيعية، كان سكران.

- إنتي كنتي هناك ليه يا حبيبتي؟

- كنت رايحة لنهال صاحبتي البيت، فعديت عليها ملقتهاش، فاتصلت بيها قالت لي عدي عليا في steel وبعدين نطلع ع البيت، دخلت أجيبها من جوه، فقابلته بالصدفة، كان شارب وسكران وأول ما شافني هناك حاول يتصرف تصرفات غريبة فمنعته وبعدين حصل اللي حصل.

- وكان إيه اللي موديه هناك؟

– مش عارفة.

– طب وإنتي مكنتيش عارفة إنه هناك في اليوم ده؟

– لأ مكنتش أعرف.

– يعني إنتوا اتقابلتوا هناك بالصدفة؟

– أيوه هو ده اللي حصل.

– طب احكيلي اتقابلتوا إزاي؟

– أنا أول ما دخلت لقيته.

– كان مستنيكي يعني؟

– لأ طبعًا بس أنا أول ما شفته قلت له إنت إيه اللي جابك هنا؟

– قام هو اهجم عليكي؟

– أيوه.

– من غير سبب؟!

– ما هو كان سكران.

يا للأكاذيب... يا للنساء.

الأكذوبة غير قابلة للتصديق بالمرة، لكن السيدة الكبيرة في السن صدقتها لمجرد أنها أنثى، الأنثى لا تخرج الأكاذيب فقط إنها تصدقها أيضًا، العلاقة بين الأم وابنتها أوصلتهما إلى الخداع ثنائي الأبعاد.

الابنة تخدع الأم والأم تخدع عقلها كي تصدق ابنتها، ماذا لو كان من قال هذا الكلام شخص آخر. هل كانت سيدة تبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا ستصدق مثل هذا الكلام، البنت دخلت نادي steel الأشهر من النار على علم بالصدفة كي تنتزع صديقتها، ثم كانت على وشك الخروج عندما حدث ما حدث. إنها كذبة لا يصدقها طفل في الرابعة. كانت القصة شدت انتباهي باعتبارها لغزًا كوميديًا كالنكتة. وكان كمال مستمرًا في التأثر.

١٣

لم أستطع تصديق أن سوزي قالت ذلك، كل النساء يكذبن بالتأكيد، فالكذب اختراع حريمي في الأساس. لكن سوزي كانت تحكم كذباتها أكثر. هي لم تكن كذوبة بشكل استثنائي لكنها كانت

كذوبة بفعل الأنوثة. الأنوثة عامل حفاز يحول الصدق إلى كذب ويجعل الآخرين يصدقون، إن كمال يعرف أنها كانت كذابة لكنه لم يعرف أنها كانت تخدعه. يا لزخرفة القدر إن به كل شيء غرائبي. إنها كانت تخدعه خدعة مركبة، ربما لو اكتشفها لعاش طوال عمره يبحث عن أذني حمار كي يبقى سليم النفس، كانت تخدعه يوميًا، كانت تستمع إلى التسجيلات بنشوة ثم في اليوم التالي يبدأ الخداع، وكنت أنا أيضًا شريكًا متضامنًا في هذه الخدعة، لكن الفارق أنني كنت أشاهد فقط. يا لزخرفة القدر. بالأمس القريب كانت سوزي تسألني نفس السؤال – هل تعتقد أنه يكذب علي– لكني لم أكن أعرفه وقتها أما الآن فهو جالس أمامي لم أكن أراه بوضوح. كنت أري خيالاً فقط، وكانت الخيالات اللاهثة تمتحن نصف وجهه الأيمن الذي يواجهني بشكل يصعب فهمه.

عاودت التفكير في التسجيلات... كانت تقوم بخداعه آمنة مطمئنة بعد أن تسمع شيئًا يطمئنها من ناحيته. كانت تبدو سعيدة بشكل غير عادي في تلك الأيام التي تسمع فيها تسجيلات من ذلك النوع المطمئن. كانت تقول إن سبب سعادتها أنها تستمع إلى الحقيقة

المجردة. كانت تؤكد لي أنه شيء طبيعي أن تشعر بالخدر بعد أن تشرب من رحيق الحقيقة. بعد أن تستمد سعادتها من التسجيلات، تظل طوال الليل تحلم بما قاله زميلي في غرفة العطن ثم تقوم في اليوم التالي بخداعه. كنت أحذرها باستمرار من أن الموضوع بدأ يأخذ شكلاً من أشكال الهوس، وأن عليها أن تبحث عن طبيب نفسي للعلاج، فالمفروض أنها نفذت فكرة التسجيلات تلك لتساعدها على إتمام العلاقة بذلك الشاب، وليس لتعقد له عُقدًا وتفكها في اليوم التالي. كانت تقول لي اذهب أنت إلى الطبيب النفسي لتعالج نفسك من هوس التسجيلات. كانت صاخبة للغاية؛ لكن صخبها الأكبر كان يوم أن أتت إلى المكان الخاص بنا في نادي steel. كانت تترنح تقريبًا وبصوت فرح مفاجئ قالت:

– سمعت آخر التسجيلات؟..تسجيل يوم الجمعة

كنت لا أعرف بالتأكيد ما حدث في اليوم السابق الجمعة السادس والعشرين من فبراير من العام الرابع من الألفية الثالثة، وبالتالي فقد كنت متوقعًا أن أستمع إلى تسجيل معتاد، لكن فرحة سوزي جعلتني أتوقع شيئًا غريبًا...

تسجيل ٨ :

صوت أصوات متضاربة وسكون طويل ثم:

– شفت اللي حصل النهاردة؟

– إيه؟

– سوزي...

– مالها؟

– قالت لي مش هينفع يبقى فيه بينا حاجة!

– نعم يا أخويا إنت وهي؟

صوت تليفزيون ينخفض.

– مبتحبكش إزاي يا ابني إنت عبيط؟ الرؤية واضحة، أنا مستعد أراهن على مليون جنيه إنها بتموت في اللي خلفوك.

– بعد ما قلت لها إمبارح باموت فيكي، قالت لي النهاردة أنا عايزاك، أنا قلت خلاص وهيأت نفسي واستعديت، وبعدين بدأت الحوار معايا بداية مبشرة، فبدأت حواسي كلها تستعد، وبعدين زي الأفلام الأجنبي كانت الصدمة في النهاية.

– وإنت طبعًا خريت زي الحمار؟

– كنت مضطر يا آه يا لأ.

– البت دي بتستعبط على فكرة.

– طلع إن فيه واحد تاني زي ما قلتلك.

– الواد بتاع الكتاب؟

– اسم الله عليك، بص إحنا هنعمل زي الأفلام، هنام على رجليك وأبكي.

– براحتك.

كان صوت بكائه واضحًا في الخلفية، ولم يعرف إن كان ذلك حقيقًا أو مزيفًا أم أنه كان صوت بكاء أحد أبطال مسلسل السابعة والربع، وهو البطل نفسه الذي يبكي كل يوم عندما تقترب الحلقة من نهايتها.

قالت سوزي:

– شفت دموعه نزلت عشاني.

شعرت بدهشة حقيقية في ذلك الموقف لأن التسجيل كان مثيرًا وغريبًا وكانت سوزي تبكي عندما نظرت إليها فجأة.

١٤

دفتر يوميات كمال...

الأحد الثامن والعشرين من فبراير...

كان اليوم هو التالي لتدشين علاقتنا أنا وسوزي، اتفقنا في اليوم السابق اتفاقيات أحبة كثيرة، كان أهمها أن أحضر في ذلك اليوم إلى الجامعة في السابعة والنصف، كانت تخاف على مستقبلي كما قالت. لابد من الحضور باكرًا. بدأت مسئوليات الحب، كانت هي نشيطة تصحو باكرًا وتحضر إلى الجامعة في السابعة والنصف صباحًا، فيما كنت أنا لا أستطيع سوى الحضور في الحادية عشرة، هل سيمكنني الالتزام والانتظام في حضور مواعيد عجلة الحب الدوارة. كان وجهها غضًا بشكل يجعلني قادرًا على احتمال أي شيء. في الحادية عشرة كنت في الجامعة.

– حمد الله ع السلامة.

– الله يسلمك.

كانت إلى جوار صديقتها تتصفحان مجلة أجنبية عن الأبراج.

- إنت إيه؟

أخذت المجلة من يدها وبعيني مسحت مسحًا خفيفًا ما يقوله أليكس تايلور عن حظي هذا الأسبوع، أليكس تايلور أمريكي من أصول أفريقية يشتهر في العالم الأفريقي كله بالهرطقات المتوالية التي يطرحها باب حظك اليوم على جمهور الرجل المتزايد. كان يقول:

Your social cycle will expand continuously due to libra will be at the nearst point close to the sun in this week huge expansion in your social cycle will take place love will be near than any time before this a big news but you must be care about your self first

- إنت إيه؟

- libra.

- والله العظيم كلامه صح.

- فيه إيه؟

- ما فيش...

- ما فيش إزاي ما إنت بوزك شبرين أهو.

– إحنا مش اتفقنا إنك جاي من الصبح ما جتش ليه؟

– ما قدرتش أصحي.

– ليييييييه...؟ كانت ممطوطة طويلاً

– عندي برد.

اضطررت للكذب ثم فكرت لبرهة لماذا لم أضحي وأصحو باكرًا؟ ولماذا أكذب الآن؟

– أنا نازل دلوقت، نازلة معايا؟

– لا مش نازلة.

.last chance –

كنت أتعمد استخدام الإنجليزية لأنها كانت تدمن تلك العادة، هزت رأسها فانطلقت خارجًا دون أن يبدو على ملامحي أي شيء. جلستْ بعيدًا مع نخبة مختارة ممن لا أطيقهن من صديقاتها... كنَّ متشابهات وكئيبات.

في الاستراحة كنت واقفًا في الممر المؤدي إلى قاعة الدراسة عندما كانت هي بمواجهتي، تتقدم مسرعة وتنظر نظرة خاصة، بعد انتهاء الدرس كانت بصحبة نفس أولئك الكئيبات ومع حضور حفنة

أخرى، كان عليّ أن أودع المكان، قال سامر إنني كنت سلبيًا للغاية في هذا الموقف، كان عليّ أن أقتحم المكان وأختطف أميرتي.

الاثنين الأول من مارس...

اليوم عطلة، كانت نتيجة الامتحانات على وشك السطوع على الجدران كالشمس، وهأنذا واقف في الدور الثاني بمواجهة الزجاج في انتظار عامل البوفيه والنتيجة من الكنترول، أصل بنظرتي الشاردة إلى الكافتيريا، وأصدقاء على مسافات متفرقة في الأسفل وصوت صندل يقطع شرودي بحدة، كانت تتقدم بثقة ناحية تامر زميل الدراسة الكئيب.

– كمال فين؟

– فوق بيشوف النتيجة.

– فوق فين؟

– الدور التاني.

كنت أسمع هذا الحوار بعيوني التي تابعت مسيرة سوزي الناجحة باتجاهي. نفس الضوضاء مرة أخرى. بصحبتي صديقان لا يعرفان شيئًا عن قصتنا، بحركة سريعة تركتهما.

- شفت النتيجة؟

ما هذه البداية الغريبة لحوار... كانت متحفزة ومتوترة للغاية مما حدث بالأمس كما هو واضح على ملامحها، وعلى الرغم من ذلك كانت في القمة كأنثى، الكحل العربي يشق خطوطًا بعيونها،عندما تتزين الأنثى لذكرها يكون الوضع مختلفًا.

- لا! غريبة إنك جيتي... النهاردة أجازة.

- اتفقت مع شيماء صاحبتي إمبارح إننا نيجي.

لحظات صمت طويلة تتحاشى الكلام عن أمس...

- مالِك؟

- مش عارفة حاسة إنك مش خايف عليا.

- مين قال؟

- كل حركاتك معايا غريبة.

- هو فيه إيه مش فاهم؟

تواصل كأنها لم تسمع:

- حتى أصحابي الهايفين بيتصرفوا معايا أحسن منك، لو متأخرة يوصلوني، لو زعلانة يسألوني مالك.

- إنتي عايزة إيه؟

بعصبية شديدة وحركة عين متوترة:

- ولا حاجة.

تأتي شيماء فتتركني واقفًا دون أن تنظر خلفها.

الثلاثاء الثاني من مارس...

في وسط اليوم ألقاها، تُلقي تحية الصباح وكأن شيئًا لم يكن، تنزل برفقتي الدرج ثم تقابل إحدى صديقاتها فانتظر لثوان، ثم أنصرف سريعا عندما أسمعها وهي تهنئ صديقتها على الخطوبة، لا شك أن الموضوع سيطول.

في الثانية ظهرًا:

- حالتي النفسية زي الزفت!

تبكي فجأة من شدة الخوف من النتيجة، كانت تبكي دائمًا قبل الامتحان وبعد الامتحان وقبل النتيجة وبعدها. كانت تعتقد أن شكلها يصبح طفوليًا عندما تبكي. كان ذلك حقيقًا.

أتركها لأذهب إلى أصدقائي، ثم أعود فلا أجدها. أظل أبحث عنها لفترة وفي النهاية أكتشف الحقيقة المفجعة... لقد ذهبت!!

الأربعاء الثالث من مارس...

أحضر إلى الجامعة متأخرًا. لا أقابل سوزي سوى في الثانية ظهرًا، منذ بدأت علاقتنا وهي حريصة على التواجد في المكان الذي استوطنه منذ بداية رحلتي الجامعية. كانت عيونها ترتاح راحة غير عادية عندما تعثران على وجهي، كنت متأنقًا للغاية في هذا اليوم وكانت هي كئيبة.

الحوار كان قصيرًا للغاية في ذلك اليوم، فعندما كانت على وشك أن تغادر؛ داعبتها مداعبة بسيطة بينما كان أصدقاؤها وأصدقائي حاضرين، استدارت بعدها بسرعة ثم بلهجة حادة:

– احترم نفسك!

– على فكرة أنا عاوز أقولك على حاجة.

– قول؟

– لأ دي حاجة بيني وبينك.

– أنا مفيش حاجة بيني وبينك!

كانت الجملة صاعقة قالتها ثم استدارت لترى انطباع أوجه صديقاتها اللواتي بدين راضيات تمامًا.

الخميس الرابع من مارس...

التاسعة صباحًا كنت في المدرج، عند العاشرة أغادر لأدخن سيجارة في الأسفل، جرت هي مسرعة ورائي في الرواق، كنت أشعر بها لكنني تجاهلت النظر.

– هتيجي النهاردة steel.

بعد أن نطقتْ تلك العبارة شعرتُ أن نهال هي التي حرّضتها على تجديد دعوتي للحضور لذلك المكان...

– إن شاء الله.

– سلام.

– سلام.

بعد أن جاءت مجموعة من الأصدقاء المجهولين ليؤنسوا وحدتها ويشعلوا نار غيظي.

– ثواني عايزك... إيه الكلام اللي قلتيه إمبارح ده؟

– كلام إيه؟

– إيه ما فيش بيني وبينك حاجة دي؟

– ما فيش بيني وبينك حاجة فعلاً!

- وده اكتشفتيه إمتى؟

- فجأة حسيت إن اللي بينا ده لعب عيال!

ثم اصطنعت المرح فجأة وقررت الهرب من الموضوع:

- أنا موبايلي بايظ وعايزة موبايلك يوم واحد بس. هتجيلي مكالمات مهمة أوي النهاردة، ماما محرَّجة عليا استعمل التليفون عشان سمعتني باتكلم مع زازا صاحبتي عن وليد افتكرت إن أنا اللي مصاحباه، كانت رافعة السماعة التانية. إنت عارفها.

زازا صديقتها مصاحبة شاب يدرس في الجامعة الأمريكية اسمه وليد من عائلة كبيرة في المنيا كما أفهمها. كان الولد يتسلى بها، وكان ذلك واضحًا، لكن من يجرؤ على قول حقيقة واضحة؟ زازا كانت محجبة ورغم ذلك كانت تخرج متبرجة مع صديقها، كانت أمها تتحدث باستمرار عن أخلاق ابنتها الرفيعة، وكيف أنها اختارت الحجاب برضا تام وملائكية زائدة، وفي نفس الوقت كانت زازا تتسكع كالملاك في شارع قصر النيل.

ما أحلى التسكع في الشتاء، الشتاء يطبع قبلاته على وجه الدنيا فتتحول القبلات مطرًا يغسل الشوارع والقلوب البضة، "المطر إيذان بالقبلات فليبدأ المطر" كان يقول وليد.

اتصل وليد بزازا فردت قرينتها سوزي بدلاً منها فافتتح المكالمة بجملة أيوه يا حبيبي، ردت سوزي لا حبيبك جنبي أهو خدي يا زازا وضحكتا، سوزي اعتبرت الأمر مؤثرًا فحكته لي، وحكت أيضًا عن بداية علاقتهما.

"كانت لا تطيق إحدانا الأخرى كانت أمي دائمة الزيارة لأمها، وكنت مغتاظة من ذلك بشدة، وفي يوم ما أخذتني زازا إلى غرفتها ونسينا ما كان وضحكنا ولعبنا وصرنا صديقتين حميمتين".

– سوزي أنا صعب أعيش من غيرك.

– اكتشفت أننا متنافرين يا كمال، أنا وأحمد متفقين في كل شيء، تخيل إن إحنا بنحب نفس أنواع الأكل. إحنا بنفهم بعض من نظرة عين.

– سوزي أنا ما صدقت إني لقيتك مش معقولة هاخسرك بالسهولة دي!

– إنت أكيد هتلاقي أحسن مني.

لا توجد جملة مؤلمة كتلك، فهال صديقتنا المشتركة البريئة حاولت سكب الماء على النار وتهدئة الموقف، لكن الأمور كانت قد بلغت

ذروتها، حاولت تهدئتي وتطميني كمجني عليه. لم تطق سوزي رؤية ذلك المنظر فانقضت عليها كطائر جارح وانتزعتها بعصبية متعجرفة. كنت أشعر أن سوزي تبكي داخلها في تلك اللحظة، في الحب لا يمكنك الوقوف دون حراك، دائمًا ما ستفعل شيئًا جيدًا أو مدمرًا، لماذا لا تمنحني الأقدار فرصًا للحب أقل رومانسية كما تمنح آخرين!

١٥

هأنذا أقرأ مذكرات كمال.. بالأمس القريب كنت أقرأ مذكرات سوزي الصوتية كانت لسعة البرد قد سيطرت على المكان، فأيقظت كمال سريعًا

– ليه كنت بتعمل ده ؟ سوزي كانت بتعاني

– كنت سلبي جدًا سامر كان بيقول لي إن عقلي مختلف عن كل البشر. أفكار كلاسيكية غريبة كانت في راسي منها أن كوننا مرتبطين بقصة حب مش معناه بالضرورة أننا نبقي مع بعض طول

الوقت وكانت هي بتحلم بالعكس كبرهان علي حبي لها، ليه الأنثى دايما بتدور علي الأدلة واحنا مش بندور علي أي أدلة؟

– طبيعة الأنثى إنها نفسها في اهتمام خاص طوال الوقت وإنت كنت بتعمل العكس علي طول الخط، الغريب إنك كنت بتُظهر عدم الاهتمام واللامبالاة بتلقائية زي ما قالت سوزي.

– كنت باعمل ده زي ما تكون خطط بأنفذها كانت فيه قوة خفية بتشدني.

– ليه؟

– كنت مش عاوز الناس تعرف إن بيننا قصة.

– والسبب؟

– لأن عندي ميل غريزي للإخفاء، مطلب نفسي عميق كنت متمسك به جدًا. كان سامر بيعتبرني شخص غير طبيعي بسبب تصرفاتي مع سوزي، الغريب أنني ما قدرتش أقيم الامور بالشكل ده إلا بعد فترة طويلة. كانت فيه غشاوة علي عيني. الفتاة بتعرف محبوبها من اللحظة الأولي وتدخل العلاقة بمنتهي البساطة، والذكر بيكون مرتبك رغم أنه يفترض دائما العكس . البنت هي اللي بتختار وأنت معندكش أي فرصة للهروب من مصيرك، إذا الأنثى

سعت ورا حبيب هترتكب كل الحماقات وتهدم كل الأعراف وتدوس علي كل شيء، وفي النهاية مفيش حاجة هتمنعها عن حبيبها. والعكس صحيح فلو إنت اخترت فتاة ورفضتك عمرك ما هتنولها. مهما بذلت مش هتقدر حتى لوكنت تملك كل حاجة. كل شيء في الحياة بيتحرك بآلية واضحة. طبيعة الشيء بتحكمه، وما فيش أي حاجة ممكن تعلا فوق طبائع الأشياء حتى العقل، تحولت طاقة الحب غريزيًا لطاقة انتقام لـمَّا حست هي بالإهانة.

تسجيل ٩

تسقط الفتاة في الفخ أولاً
وبمنتهي التلقائية
والبساطة
والخبرة
ويظل الفتى متخبطًا
في الشرك طويلاً
وبعد أن يسقط

يكون منهكًا

ومتعبًا

وغريبًا على شركه

فيما أنثاه اعتادت

على بيت

صاغته

كبيت العنكبوت

إنها لعبة الحب

كما صاغتها آلهة الحب

على أقصي قدر من تخمين

الفتاة تختار بعيونها

وتعرف محبوبها

منذ النظرة الأولي... الطويلة

فيما المحبوب

يعزف قصصًا من جهل

طوال الرحلة

يا للقصص الأزلية
كل الأشياء مصدرها واحد
كل الحكايات حكاية واحدة
كل القدر نفس القدر
كل الحقائق لاشيء
أسطورة حبي تنتعش فتغرق
هذا العالم
هذا الجاحد
فليكن الأوار
ولتكن الحيرة
وليستعذب جسدي تعذيبا
يستل الخنجر تلو الخنجر
يا للحظ
تسقط كل تمائم حظي في الفخ
أنتفخ ككرة الثلج
وأسقط كحجارة أقوام

منثورين كودع
في الصحف
يا للصدفة
عمودي أنا وسريع وكذلك
ممتثل كالطفل المسكين
لقوانين الجذب الأرضية
تبًا للنظم الكونية
أيتها الساحرة السوداء
فلتخترعي للوجه المصقول
أمامك كعوارض تمثال
شكلاً مسكينًا آخر
يخترق القانون الواحد للكون
فلتخترعي وجهي
عكس طبيعة كل الأشياء

أتذكر هذا التسجيل، حسنًا لقد بدأت الفلسفة إنه هو نفس الشخص الذي استقيت منه معظم خبرتي الشعورية يا للأشعار،

الأجواء الكئيبة تنطق قصائده، لم أكن أصدق أن شابا يبلغ من العمر الثانية والعشرين قادر علي كتابة مثل هذه الأشعار وصياغة مثل تلك التصورات لكن ها هو ذا الحق يسطع أمامي في الظلام كنت أعتقد أنه ينتحل تلك الأشعار التي سمعتها في تسجيلاته لكن ها هو ذا يتكلم أمامي. إنني أحب الحقيقة كما كانت تحبها سوزي.

سألت كمال:

– دايمًا بتقول طبيعة الشيء أهم من العقل.. تقصد إيه؟

– أضرب لك مثال لما كنت رايح البار كان العقل بيقول إن المكاسب كثيرة.... رد اعتباري أمام نهال و جلسة عشق في الظلام وبعد ما فشلت في الدخول عند ٦ بوابات صعب عليَّ التضحية بكل المكاسب العظيمة.كانت إرادة ربنا بتبعدني وكان عقلي مصر على أنه يوردني موارد التهلكة.

قلت:

– كان الشيطان

ردَّ سريعًا:

– العقل هو الشيطان

سألت:

- والشيطان هو العقل؟

- طبعًا شيطانك يتحكم في جزء كبير من عقلك. عقلك مش كله ليك. العقل رسول الضلال. وظيفة العقل المهمة غرس الإنسان في الشرك والضلال.

قلت :

- أهم وظيفة للعقل هي التفكير والوعي بالحياة.

ردَّ كمال:

- كله بيحصل بطريقة آلية ديناميكية. عقلك بيوجهك لقضاء احتياجاتك البيولوجية بشكل آلي، وبيتعرف على الواقع بشكل آلي وبيفكر بشكل آلي. طبيعة الأشياء كل مرة بتظهر. مشكلة الإنسان إنه بيعتقد أنه بيدور على ما يتعسه دون قصد. لكن الحقيقة الخالصة بتقول إن عقل الإنسان بيدور على ما يتعسه دايمًا، ولما يتصادف ويغلط العقل تتحول التعاسة إلى سعادة.

- كلامك شبه كلام الصوفيين.

- لا، أنا مش صوفي. لكن لو بصيت لحياة الصوفيين هتلاقي ان عندهم نفس القناعة عقولهم واقفة عن التفكير إلا في حاجة واحدة. الله. المخرج.

- ولو فكروا في حاجة غير ربنا. معنى كده إن العقل هيرجع لممارسة هوايته.. الضلال؟

- أي شيء تفكر فيه وتتصوره باستثناء ربنا مخبي في عمقه ضلالة.

كان الكلام مرعبا فشعرت برهبة عظيمة عند تلك النقطة ووددت لو ينتهي الحوار

سألته:

- العقل أو الله؟

- ما فيش حل تاني وصعب نعمل توازن من أي نوع، فيه شك كبير في العقل والدليل أنه بيخدعك في بعض الأحيان، العلم أثبت ده، لكن الحقيقة أنه بيخدعك طول الوقت عشان كده الصوفيين اللي بتتكلم عنهم عمرهم ما اعتمدوا على العقل بيعتمدوا على تجربة شعورية أخرى اسمها الكشف. تخيل الإنسان إن العين بتشوف والودن بتسمع واللسان بيميز الطعم، لكن فيه حقيقة غايبة.

برعب:

- وهي؟

- أن القلب بيأدي الوظايف الخمسة بكفاءة تفوق الحواس الخمسة القلب بيشوف اللي في قلوب الناس ويزور عقولهم بقليل من التدريب.

سيطر عليَّ اعتقاد أنه يخرِّف بفعل الأجواء والمكان والحالة وأغرق في حالة من الذهول ومحاولة التأكد من الواقع. أضع يدي على جبهتي.

ما هذا الذي أسمعه

هل أحلم ؟

أفكر في الوقت

ربما تكون الساعة الثامنة صباحًا

- قال لي صديق صوفي إنه يقدر يشوف حاجات أنا ما أقدرش أشوفها، وإنه يقدر يعرف اللي أنا عمري ما أعرفه.. إنت بتصدق الكلام ده؟

- أصدقه. ممكن جدًا. العين بتقرا الأشياء ثلاثية البعد وثنائية البعد والودن بتسمع الأصوات أحادية البُعد، فيه أبعاد، يعني ممكن عكس كل شيء. ممكن تكون الحقيقة أن الصوت ثلاثي الأبعاد.كل اللي أنا واثق فيه إن الحقيقة شيء مختلف هنتفاجيء كلنا لما نعرفه.

يا للكآبة ما الذي يفترض بي وأنا أسمع مثل هذا الكلام

أتذكر الحرية

- إزاي يختار الإنسان إذا كان العقل مش بيختار غير الضلال؟

- القلب هو اللي بيختار. كل اللي تقدر تعمله في الحياة إنك تملا قلبك، مش عقلك. ده المخرج. العقل مش بيختار.

- إزاي؟

- الإنسان مخير بمعني إنه يقدر يختار، لكن ده باعتبار العقل أداة مناسبة للاختيار لكن العكس هو الصحيح تقدر بس تختار بين طريقين مش أكتر.

- اللي هما ؟

- الهداية والضلال، وأداة الاختيار القلب.

- الإنسان مخير ولا مسير ؟

- مشكلة الإنسان إنه بيعتمد على عقله في الاختيار فبيتخبط في مسالك الضلال، وعشان كده بيفضل عايم في الشرك العنكبوتي الذي نصبه عقله طوال حياته من غير ما يوصل لشيء، هو مخيّر في البداية لكن العقل هو اللي بيخليه مسيّر بشكل تدريجي. يسلك طُرق غير اللي كان ناوي أنه يسلكها في البداية. العقل يتصور الأمور بشكل، وعلى أرض الواقع التنفيذ بشكل مختلف. إنت بتفضل طول حياتك ترى سرابات على أنها أهداف وتطعن اللي المفروض تاخذهم بين دراعاتك. إنت مسير يا صديقي. العقل باستمرار يختار الطريق الغلط والتعاسة. ويبني أشياء على أشياء وضلالات على ضلالات عشان تبقي خريطة حياتك جاهزة، متعرجة أكثر مما تخيلت، والنهايات غير متوقعة والطريق غير الطريق.

- فيه دليل على اللي بتقوله ده؟

- الشيطان. لوكنت مخير ماكانش يبقى فيه شيطان، الاختيار يساوي فرصة كاملة من غير وساوس. الشيطان بيرمي بذور

الضلال وبينفخ في النار. حارس بس، حارس الضلال. قدرتك كمان على التفكير والحس محدودة وده معناه أن قدرتك على الاختيار فيها شك.

تمتم :

- الإنسان مسير.

ثم أكمل:

- مسير ومخير ولا شيء.

كان سيل الرعب قد بلغ الزبى... ما الذي يقوله هذا المأفون؟

- بعض الناس اختاروا إنهم يكونوا عبيد للشيطان تفتكر ممكن يكونوا هما اختاروا ده بإرادهم؟..تعرف حاجة عن فعل الشيطنة ؟

- لا .

- فعل الشيطنة يساوي أن يتحول بني آدم إلي شيطان، يعمل نفس اللي بيعمله الشيطان، يوّقع بين الناس، ويحب يشوف الأحباب بيطعنوا في بعض، ويوحي للناس بالتعاسة، ويزرع الشك في نفوس الفرحانين. وبعده كده فيه تغيرات عضوية بتحصل..

بصوت مختنق:

– زي إيه ؟

– ضوافره تطول ويكره الاستحمام واللمعة، لمعة عينيه نفس لمعة عيون الشياطين.لمعة كريهة ومجنونة تعوم فوق دمعة ثابتة في منتصف العين.

– كمال أيه اللي انت بتقوله ده انت ملبوس؟

بهدوء:

– أبدًا

حاولت بلع ريقي فيما كان الدوار يسيطر على عيني يا للفلسفة إنها شريرة للغاية.

كيف كان يمكن لسوزي أن تلتصق روحانيًا بشخص كهذا فهي فتاة بسيطة تعشق اللعب والمرح والرحلات والسهر.كيف يمكنها أن ترتبط بشخص كهذا كلامه أكثر فلسفة وعمقًا مما كنت أتصور، هو الذي كان يكتب الأشعار بدون شك، بدا كما لو أنه يمارس طقسًا من طقوس غسيل المخ أو أنه يتعمد إرعابي بكلماته الواثقة ونظرته المشحونة.

لابد من رد فعل

قلت له:

– سوزي قالت إنك شاعر

– صعب أني أتخيل إنها قالت عني حاجة زي دي

– ليه ؟

– مكانتش مهتمة بالموضوع والأهم من ده أن أنا شخصيًا مكنتش مهتم

شخص غريب دون شك

يا لك من سوزي

– طب ما تقول لنا حاجة عشان نتسلي

– ممكن أقولك حاجات لشعراء تانيين

– لا أنا عاوز اسمعك

سكوت طويل ثم:

تتلاصق كل قوانين الفيزياء

لتؤكد للعالم

أن البندول يتحرك

حين يلاعبه الأطفال

أن البندول لا يسقط

إلا حين تلاحقه ضربات الأوغاد

تتنامى أعضائي

تتعالى في الدرجات

أصبح أنا نفسي قانونًا للفيزياء

في اليوم التالي مصلوبًا في عرض الشارع

أثبت للعالم قانونًا آخر

للفيزياء

يبدأ إلقاء قصيدة جديدة تقول :

في عين الحقيقة

يوجد شخصٌ واحد

في عين الحقيقة

يوجد كل الأشخاص

بنفس الوقت

في عين الحقيقة

لا يوجد شيء

كان يقف فجأة

من أين يأتي بهذه الأجواء، إنه هو نفس شخص التسجيلات دون شك.كنت أعتقد أن سوزي تخدعني، وتسجل أشعارًا لآخرين، وتدعي أنها له من باب التفاخر.

- بس إنت عرفت حكاية الشعر دي منين. مستحيل تكون سوزي قالت لك، أنا متأكد

ألعب لعبة قديمة:

- مين يعني؟

- مش عارف

- ع العموم أنا أعرف عنك حاجات كتير. إنت مقاس جزمتك ٤٣

- سوزي تعرف

- وبتحب تلبس جواكت جلد

- سوزي تعرف

- وبتحب الكوره
- سوزي تعرف
- وليك صاحب اسمه سامر
- أنا قلت لك
- وصوته وحش
- قلت لك

يتردد كمال ثم يبدأ في التوجس والاهتمام بالأمر ثم يضيع تركيزه فجأة ويشرد..

• • • •

كالطفلة تأتيه:

- اتأخرت ليه؟
- المواصلات.
- لقيتك اتأخرت قلت إنت مش جاي، تعال أقف معانا.
- أخلص مع زمايلي وهأبقى فاضي.

• • • •

- عايزة كرسي.

يصر على أن يحمل لها الكرسي حتى المكان الذي تريده، وهي تنظر لصديقتها في فرح طفولي متوهج، كان لفرحها الطفولي وقع مبهج ومميز.

• • • •

- إنت قلت لماما وإنت بتكلمها إمبارح سوزي زي أختي؟

- لا والله ما قلت.

- لأ قلت.

- هي بتقولي سوزي زي أختك قلت لها طبعًا.

كان يكذب فلقد قال ذلك للأم لتطمينها على ابنتها، كانت نهال صديقة مرحلتهما تقف في خلفية المشهد المشمس، لم يدرِ لماذا أنكر بهذه القوة، وكذلك لم يدرِ لماذا سألت السؤال بهذه الجرأة، كان الرد المتوقع آه قلت وفيها إيه.

• • • •

قالت له بعد ذلك إنها لم تكن تشعر بأي شيء تجاهه وأنها بدأت تشعر به في مرحلة لاحقة من علاقتهما، فيما الحقيقة أنهما عاشقين منذ سنوات، دائمًا ما تقول أكاذيب، ودائمًا ما يكون هو عارفًا بالحقيقة تمامًا، دون أن يمنع ذلك دائرة القدر من الدوران في فلكها المقدور سلفًا. هل يمكن نسيان تلك الأيام، يمكنه تخيل أنهما كانا عاشقين قبل أن يوجدا.

• • • •

تشده من ذراعه يفلت ذراعه، يعود لنفس المكان مرة أخرى:

– إيه اللي عملتيه إمبارح ده؟

– سبته إمبارح ع السلم ومشيت. تقول لنهال...

• • • •

يشدها من ذراعها...

– فيه إيه سيب إيدي بسرعة، ما تمسكش إيدي تاني.

– مطنشاني خالص.

- لا والله عادي.

- ماشي.

• • • •

- عرفتي منين إني بحبك؟

- كان باين.

- إزاي؟

- لما مسكتني من إيدي، كنت بتقرب مني وإنت بتكلمني.

• • • •

"على فكرة البت دي لما بتكلمك بتقرب منك قوي"

ملاحظة مخلصة من زميل غير مخلص...

• • • •

- سامر: قالت لك إيه؟

- قالت بحس إنك قريب مني ودايمًا بدور عليك.

– كده تبقى قالت لك إنها بتحبك يا بقرة.

– طب وموضوع الواد اللي طلع لي من تحت الأرض ده؟

– ولا يهمك ده حوار عبيط.

• • • •

كان غارقًا في بحر من التأملات عندما قطعت حبل أفكاره...

– إنما إنت ليه كنت مسمي سوزي عُلا؟

انتفض كمال كالملسوع:

– إنت بتقول إيه؟

بمنتهى الثقة أتوقف عن الكلام لثانية ثم يعود صوتي للتكون:

– ليه مكنتش بتقول اسمها الحقيقي؟

بصوت مرعوب:

– إنت تعرف سامر؟

– لا.

– عرفت منين طيب!

– ليه كنت بتكدب على صاحبك ومفهمه أن حبيبتك اسمها علا؟

كمال ما زال ينتفض كمن لسعه عقرب ويأخذ دوره في ضرب جبهته بكف اليد:

- إنت عرفت إزاي؟

- عرفت وخلاص!

- مش ممكن. عرفت إزاي. مستحيل إنك تكون بتعرف سامر، حتى لو تعرفه ده برضه ما يخليكش تعرف حاجة زي دي، واستحالة يكون هو يعرف سوزي من الأول، استحالة.

- وليه لأ. ليه ميكونش سامر يعرف سوزي من الأول وكان عارف إنك بتكدب عليه.

- مستحيل!

- هو إيه اللي مستحيل، مش بيحصل ده في الدنيا؟!

- أيوه بيحصل بس مش للدرجة دي، وليه معايا أنا بالذات، يعني سامر كان بيخدعني كل ده وبيضحك عليَّ، مستحيل.

- وإنت مكنتش بتخدعه؟

- لأ طبعًا دي كدبة ملهاش أي تأثير.

ثم بأسى الحقيقة يعلمها الآخرون:

– سامر كان بيخدعني!

أضحك ضحكة مفتعلة:

– ولو هو عرف إنك كنت بتخدعه؟

– هاقوله ببساطة إني مكنتش عاوز أقول اسمها الحقيقي، وهو هيقدر ده وينتهي الموضوع.

– الموضوع بسيط قوي.

– جدًا.

– وبالنسبة لخداعه؟

– خداعه هو لا يغتفر طبعًا!

– لو كنت مكانه وعرفت إن صاحب بيكدب عليك هتعمل إيه؟

سكت مصدومًا ومتفاجئًا ثم قال بصوت خفيض كمن أضطر للصدق:

– يمكن كنت أعمل نفس اللي هو عمله.

– على العموم أحب أطمنك إن سامر مكانش بيخدعك.

كمن ارتاح من جبل جثم على صدره تنفس بحرقة ثم هز رأسه بقوة وقال:

– أمال إنت عرفت منين موضوع تغيير الاسم ده؟

- لأن في حد تاني كان بيخدعك.

كان الصوت كهنوتيًا هذه المرة

سأل بدهشة:

- مين؟

- سوزي!

- سوزي كانت بتخدعني إزاي؟

كان وجهه قد اصفر تمامًا، وبدا عليه التوتر الشديد، وكانت كلماتي التالية منتظمة وملحونة كأنها تنبعث من جرامافون.

- سوري كانت بتسجل لك.

- نعم؟!

- سوزي كانت بتسجل لك.

- كانت بتسجل لي إيه؟

- كل حاجة.

- كل حاجة إزاي؟

- كانت بتسمع كل اللي بتقوله، كانت حاطة لك جهاز تسجيل.

نطقت كلماتي ككاهن فيما كان كمال عائمًا في بحر من الخيالات، سوزي كانت تسجل له، إذن يمكن تصديق أي شيء بالتالي، سوزي كانت تتمتع بخاصية لم ترد في دليل المستخدم. إذن يمكن قلب كل الاعتبارات بالتالي، ما الذي جعله يدخل في تلك العلاقة من الأساس؟ هل يمكن تسمية ذلك بالحسابات الخاطئة؟ من كان يملك إنقاذه؟ من يملك إنقاذه الآن؟.

الحقيقة دائمًا شيء مختلف... هو كان يقول ذلك على الدوام لسوزي بالذات، كان يعتقد أن الحقائق التي تحرك حياتنا لا نعرف منها سوى النذر اليسير، لأنه لو عرفناها لاخترنا ألا نعرفها، أو لاكتشفنا عدم جدوى معرفتها. هل اقتنعت برأيه بالتالي ونفذت على هذا الأساس خدعتها؟ هل ألهمها لخداعه؟ لقد تكلم معها طويلاً عن حسابات العقل الخاطئة التي يبني عليها المرء حسابات حياته، ماذا لو كانت كل حساباته نفسها خاطئة؟ ألا يمكن حدوث ذلك؟ كل شيء ممكن...

هل كان يمكن أن يتخيل هو نفسه تلك الحقيقة المرعبة، "سوزي كانت بتسجل لك"، يا لها من جملة لا تفتقد اللحن، ما الذي أفاده

من معرفة حقائق مجهولة عن العقل والخداع والحسابات والإدراك؟ هل تمكن من تفادي الخداع؟ ما فائدة المعرفة إذن إذا كانت غير قادرة على إنقاذنا من الفخاخ؟.

كانت حساباته جميعها غير صحيحة لأنها قائمة على أساس عقلي يمارس الخداع بشكل ديناميكي. الحقيقة تقع في المنتصف بين طرفين أو ثلاثة أو خمسين. تقع دائمًا في المنتصف، كانت حساباته تقول إنه يمتلك زمام الموقف بشكل مستبد، فهو الذي يحرِّك زئبق ترمومتر العلاقة كيفما شاء. كان سعيدًا بالاختبارات المتوالية التي كانت تنجح فيها سوزي بإمتياز، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يفعل شيئًا ليرى ماذا ستفعل سوزي. لم يكن خائفًا أن تضيع منه لسبب غير مفهوم. كان يرمي بالاختبار في تربة خصبة من لغة العيون، ويترك سوزي لتجيب بلغة عينيها التي كانت أفصح كثيرًا من عينيه. كان يعشق لعبة الحب، ويعرف كيف يطيل مرحلة السعادة في الحب فهو يعرف أنها لحظات لن تتكرر، وبالتالي فلقد كان يريد استحلابها قدر ما يستطيع. اعتقد بيقين أن العلاقة بالنسبة له ككرة الصلصال يشكلها كيف يشاء. لكن سوزي كانت تسجل له، وهذا معناه أن سوزي عرفت كل شيء، وبالتالي فكل الأبعاد كانت معكوسة، هل

يمكن أن يكون ذلك قد حدث له في السابق لمرات دون أن يدري، بالتأكيد... الاستنباط الذي ينبغي الحصول عليه الآن هو ذلك الاستنباط تحديدًا، ماذا عن حساباها هي؟ لا يمكن الاكتشاف سوى الآن.

إنها لحظة الإشراق التي يعرفها جيدًا. الغرفة المظلمة تنير الآن والأضواء تصعد فوق المشهد، الفتاة تصالحت مع واقعها العاطفي بشكل أكثر طبيعية وسرعة منه، لقد أحبت، ثم قررت الدخول في العلاقة بعيدًا عن تعقيدات عجيبة تدمنها العقول المذكرة، بدأت تحاول فعل ذلك بشكل مباشر لكن الاستجابة كانت سلبية فاضطرت لركوب أجنحة الحيلة، فبدأ سرب التلميحات والنظرات المتأججة في الاضطراب. هل يمكن نسيان نظرها عندما داعب صديقتها بشكل مبالغ فيه. لقد انطفأت نظرها على حدود شفتيها اللتين أسرعتا لنطق كلمة هند بصوت عال، وهو اسم صديقتها، وكأنها أصيبت بمس.

بدأت بممارسة الحيلة فوضعت ورقة صغيرة في كتاب دراسي كانت تعترف فيها بحب غريم وهمي. لم يكن وهميًا على وجه التحديد،

لكنه كان افتراضيًا لأنه كان مجرد حلم. ثم بعد ذلك انهالت كل أشكال الحيلة كالمطر. فالتلميحات انتقلت بشكل سريع ومتوالي من المستتر إلى الصريح وصولاً إلى التصريح بالعيون. كانت عيونها تثبتك كقطعة من الورق في حائط وعندما فشلت في تحديد ما إذا كنت محبًا أم لا، بدأ عقلها يدخل في مرحلة الاعتقاد بأنك متورط في علاقة مع أخرى، وهذا الاعتقاد تحديدًا هو ما جعلها تستخدم حيلة التسجيل، وحينما بدأت اللعبة الجديدة استساغتها وقررت المضي في التعرية اللذيذة، فبدأت اللعبة تنعكس بالتدريج وانتقلت خيوطها إلى يديها حتى صرت في النهاية كعروسة من الخشب تحركها كيف شاءت، شعرت بذلك وكنت لا تعرف السبب، وكان هذا الموضوع يوشك على تدمير عقلك، وها قد ظهرت الحقيقة الآن. الحقيقة كالترياق المزيف يلسع ولا يفيد شيئًا.

كان صوت الأزيز الناتج عن فتح كالون الحجز كفيلاً بحثهما على الانتباه، ثم ظهر وجه شاويش تليفزيوني يقول:

– يالا يا افندية.

نظر كمال بدهشة من جاء من عالم آخر، فيما كان الضابط مبتهج الوجه:

– اتفضلوا يا بهوات امضوا وروحوا.

– إيه اللي حصل؟

– البت انتحرت.

ثم تركهما بسرعة إلى الحمام

١٦

الأفكار تغزو البقعة الوحيدة السانحة في فراغ العقل لدرجة أنني لا أستطيع التوقف عن التفكير للحظة واحدة. كلام كمال يبدو صحيحًا الآن، العقل يفكر بشكل ديناميكي، آه لو يمكنني التوقف الآن بضغطة زر.

– آلو أيوه يا ابني، لأ أنا أميرة مش هند.

فتاة جامعية تكلم شابًا في المترو... يا لسخافة الموقف.

– آه هند روحت البيت.

خمس دقائق أخرى من الأفكار، أحتاج الآن إلى طائرة هليكوبتر تحملني إلى المنزل وتقذف بي إلى السرير مباشرة، أيضًا أحتاج إلى حقن من الطعام، لأنني لا أستطيع مضغ الطعام ولا تمييزه.

– عدي يا سيدي.

– ما تعدي إنت!

– أعدي إزاي ما إنت واقف في السكة!

– طب أنا خلاص واقف كده ومش هاتحرك.

– خلاص خليك على الله تموت تحت الرجلين ولا حاجة.

– وأموت أنا ليه ما تموت إنت أفيد.

– باقولك إيه احترم نفسك.

– إنت اللي مش محترم.

– تصدق إنت قليل الأدب؟

– أنا مش عاوز أكلمك عشان إنت راجل كبير.

كان الحوار مكررًا بين شاب وعجوز في مترو الأنفاق.

ما الذي يمكن أن يحدث عندما أصل إلى البيت بسلامة الله، هل يمكن أن يكونوا على علم بما حدث؟ وماذا لو علموا؟ ربما سيأخذ الموضوع بُعدًا جديدًا متوترًا وأنا في أمس الحاجة للراحة، لا يمكنني

أن أتكلم في هذا الموضوع لثانية مع أي انسان، كان باب المترو يصدر صوته المميز فأدركت أن موعدي قد حان، خيال البيت القريب يرسم صفحة من خيالات لا يمكن تمييزها. لا بأس من محاولة عجلة للدخول دون ضجيج. كاد يغمى عليَّ بعد أن تجاوزت خط النهاية. دخلت سريعًا إلى غرفتي، وأسلمت رأسي للنوم كانت العاشرة صباحًا.

١٧

مشكلتك لا يملك حلها سواك وتلك هي المعضلة...

لا يمكن لمن يحبوننا أن يحلوا مشاكلنا، على الرغم من أنهم يريدون ذلك، لو كانت هناك إمكانية لحدوث ذلك لأصبحت مشاكل البشر تحدث في الفراغ بشكل منفصل عن ذواتهم، ثم تقسم بهدوء فيما بينهم لتحل برفق وروية، ولن تكون هناك مشكلة وقتها فلن يحل أحد ولن يربط، مشكلتك هي أنت، مشكلتك أن المشكلة متعلقة بك. كانت تقول سوزي. من أين كانت تأتي بمثل هذا الكلام كان يستغرب ويندهش وها هو يعرف السر الآن، لقد كان كلام

كمال وإيحاء سوزي... كانا يتبادلان الإيحاء على خيط من نظرات العيون لم يستطع أن يربط بين روحيهما. لقد توقف عند العيون.

لقد بدأت أهذي... إنه المرض.

العاشرة مساءً ونور متوهج يضرب في عيني ككشاف، وابتسامة لم أستطع تمييزها... إنه محمد عطية صديق السيناريو.

– السيناريو جاهز يا بطل إنت في غيبوبة، أنا بقالي ساعة قاعد.

– المهم إنك جيت.

قطعت بتلك الجملة كل الإرهاصات المتوقعة وعلامات الاستفهام السخيفة التي كانت ستهاجمني، كانت تلك الجملة ترجو الدخول في الموضوع مباشرة بعيدًا عن الأسئلة، حتى لقد كان يمكنني تمييز صوتي كصوت ديجيتال... في كثير من الأحيان نحتاج إلى سلوك ديجيتال.

– السيناريو معايا هنقراه إزاي وإنت نايم؟

– تعبان.

– ما فيش الكلام ده يا حلو.

تكلم براحتك فأنت لا تعرف شيئًا والحكي يمكن أن يتعب أكثر ولن يغير من الأمر شيئًا، أحتاج الآن لحوار ديجيتال حتى الوصول لنقطة مع السلامة والعودة إلى النوم، لكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، ذاع الخاطر في أنسجتي وبدا كما لو أنه ديجيتال هو الآخر.

– طب استنى إنت على القهوة اللي في وسط البلد وأنا هحصلك.

– القهوة في وسط البلد!

– ما أنا عارف.

– يعني نروح سوا أحسن.

– لا أنا هحصلك.

– يا ابني إنت مجنون؟ عايزني أنزل وسط البلد لوحدي بعد ما جيت لك كل ده؟ وهتيجي بعدي بنص ساعة، ليييييييه؟ وبعدين افرض ما جيتش؟

كنت أنوي فعل ذلك!!

– طب ممكن ألبس هدومي؟

– اتفضل يا أستاذ.

كنت سارحًا في ذلك الحوار الذي قض مضجعي وبعثر أحلامي، وفي غمرة استغراقي بأفكاري المنعكسة مرت قطة مسرعة من تحت قدمي تمامًا، فانتفضت وصديق السيناريو الذي كان صوت أقدامه يحدث ضجيجًا ويترك علامات على السلم.

١٨

الطريق طويل ومكتئب على ما يبدو، وعندما كنا على وشك تخطي المنطقة التي أقطنها بدت لي الحياة كسراب كما أوحى الظلام. كان تركيزي منصبًا على الهروب من أي حوار ممطوط من حوارات تسلية الطريق من نوعية فينك يا راجل، قلبت بصري في السواد. وفي نفس الوقت الذي يأست فيه من إمكانية وجود شيء يسلي بصري، وتأهبت للعودة إلى صديق مشوار المساء؛ كنت على موعد مع المكافأة البصرية التي تثبت أن البحث يوصل إلى نتيجة. لقد كانت سوزي هناك على الأرض. توقفت مبهوتًا محاولاً كبح جماح

أعصابي بيد أنني فشلت ببراعة. كان قلبي يرتجف وبدا كما لو أنني على وشك التقيؤ.

قال صديق السيناريو متفاجئًا:

– مالك يا هاني في إيه؟

قلت بكلمات بطيئة مرهقة:

– سوزي!

حاول فهم الموقف فوجد عروسة من القطن ممزقة وملقاة في وسط الشارع.

– سوزي مين يا هاني؟ دي عروسة قطن!!

– مش عروسة. دي سوزي!

ابتعد صديق السيناريو خطوة لتقييم الموقف من مكان أبعد؛ علّه يجد شيئًا مختلفًا لكن وقفته طالت لثوان. كانت مرعبة فعلاً، قال محاولا طمأنة نفسه بعد أن صار وجهه كوجه المحموم:

– دي مجرد عروسة لعبة.

كانت المشاعر المنتقلة إليه قد وضحت في صوته الذي أصبح بطيئًا وخائفًا، التقطها من مكانها، ونفضتها برفق من تراب الشارع...

– هاني بتعمل إيه ؟

قالها كالمشدوه.

– مش باعمل حاجة غريبة.

عاود صديق السيناريو النظر إلى العروسة. كانت سوداء ممزقة، لكن حياة غامضة صنعت حولها هالة من لحم ودم.

– هتحتفظ بيها ؟

– مش شايف أنها تستحق؟

كانت تستحق بكل تأكيد فقد أرعبته لثوان.

– عاوز أشوف إبداعاتك في الصورة دي، إنت صورت حاجات أقل منها وعملت منها معجزات.

قالها صديق السيناريو، ثم ضحك ضحكة خفيفة ومفتعلة، تعكس حالة التوتر التي بدأت في التسرب إلى أنسجة الحوار، بسبب تلك الشعثاء القوية التي بدت كما لو أنها أتت من قلب الجحيم، حتى أنه شعر لبعض الوقت أنها تنظر إليه.

متي سينتهي هذا الكابوس الطويل؟

وهل يوجد سبيل للخروج من هذه الأجواء ليومين فقط؟

١٩

في المقهى كان الفرح الطفولي يحاول ملأ المكان عكس ما كنت أشعر. حاولت ملأ المكان بحالتي الكابوسية من خلال نظراتي لكن الصخب والأنوار المتوالية أجحا فشلاً ذريعًا. سحبت كرسيًا من كراسي مقهى وسط البلد الصاخب وجلست إلى جوار رفيقي الذي لا يعلم شيئًا عما حدث لي طوال الاثنتين وسبعين ساعة الماضية. يا لزخرفة القدر، إن به كل شيء غرائبي. ماذا لو أنني لا أعرف شيئًا عن مأساة تعرض لها صديقي خلال الأسبوع الفائت. حاولت اكتشاف ذلك عن طريق نظرة متفحصة فتأكدت أن ذلك غير ممكن، إنه مبتسم ومنتعش. ربما يكون منظري أنا أيضًا يوحي بذلك..

– منتعش قوي إنت الأيام دي... شكلك بتحب.

قال صديق السناريو.

إنه مبتسم ومنتعش ويملك حدسًا معكوسًا، ربما حدث ذلك فعلاً لمرات كثيرة مع صديق السيناريو في الماضي، ربما تعرض ذلك الشاب المبتسم لمآسي وكوابيس ولم يخبر أحد، بعض الكوابيس لا يمكن حكيها، هل يمكنني الحكي الآن، بالطبع لا، دون شك لا، إنه العقل مرة أخرى،كل منا يتصور أنه يعرف كل شيء لمجرد أنه يملك حواسًا خمسة وعقلاً يدير تلك الحواس، هل يمكن لصديق السيناريو أن يتخيل ما حدث؟، سيستنتج أنني كنت في رحلة على الأكثر أو أنني كنت نائمًا في البيت، كم جزء من مسلسل الحقيقة مخبأ... كم من الحقائق تحميها الأقدار... كم مرة حدث نفس هذا الموقف بالعكس، وكم مرة كنت في موضعه؟، أتذكر عندما عاد من قريته في إحدى المحافظات النائية لقد كان في نفس الحالة التي أنا عليها الآن، والمنطق يقول إن النتائج المتشابهة تكون لنفس المقدمات، لقد كان في نفس الحالة التي أنا عليها الآن بالضبط، أتذكر الآن أنني فشلت في توصيف الحالة التي كان عليها وقتها، لقد كان صامتًا وكما لو أنه يعيش في....، لقد كان يعيش في كابوس، الحقائق تكتشف هكذا، لقد عاش مأساة عجيبة كتلك التي أنا بطلها الآن

لكنه لم يقل شيئًا، تقول كتب الحكمة إن كل عائلة تعيش على البسيطة يكون لها نصيب محتوم من المصائب والكوارث، حتى تنحت تلك المصائب والكوارث شكل أقدار هذه العائلة في فراغ الحياة، وبالتالي يمكن فهم أن لكل منا في هذه الحياة نصيب محتوم من الكوابيس الغرائبية، هل أعاني إذن من كابوسي الأخير؟ وهل هو الأول؟ رفسني السؤال بعنف فطرت في سماء من خيالات التذكر لأسقط سريعًا في فخ الواقع. إنها المرة الأولى على ما يبدو، طبيعة الأشياء تقول إن أي متغير بين طرفين يتحرك بنسب متساوية، إذن فلقد عاش صديق السيناريو كابوسًا واحدًا هو الآخر، يا لزخرفة الكوابيس. إنها تقود المرء لاكتشافات عظيمة، هل يمكنني تخيل نوعية الكابوس الذي تعرض له، تقول الوقائع إن المادة الخام للتراجيديا واحدة، وبالتالي يمكن أن يكون الأمر متعلقًا بـــ.....

ماذا لو أنه تعرض لنفس الكابوس؟

هل يمكن أن......؟

توقف...

٢٠

مشهد ٥:

نهار/ خارجي...

شباب يصعدون الأتوبيس...

- إطلع يا ابني بسرعة.

- بالراحة يا آبا.

- ٤٤ ده يا ابني.

- أيوه ٤٤ لو كان ٤٣ مكانش وصل عين شمس.

يضحكون وينظر لهم راكب عجوز شذرًا.

أمير:

- بكرة نقعد جنب الحيطة ونسمع الزيطة.

وائل:

- ليه بكرة ما يمكن النهاردة.

سامح:

- ويمكن ما يعرفش خالص ده راجل كروديا.

أمير:

– على فكرة يالا يا سامح أنا شفت لك شغلانة حلوة قوي.

بتلهف:

– فين؟

– في محل عصير قصب.

يضحكون بهيستريا.

• • • •

مشهد ٦ :

ليل/ مقهى...

– على فكرة يا رجالة إحنا اتظلمنا.

– أنا عندي فكرة، النتيجة لسة ما اتعلقتش، إيه رأيكو نروح نسحب ورقنا م الكنترول قبل ما النتيجة تتعلق.

– نعم يا أخويا؟!

– ما هو ده الحل الوحيد مافيش غيره، أنا أبويا ممكن يروح فيها.

– إنت عبيط يالا؟!

– أنا عارف الواد محسن بتاع الأمن، هندخل بالليل بعد ما الطلبة يمشوا وهيبقى عندنا وقت للصبح نخلص فيه الليلة دي.

– يا راجل!!

– إنت عارف فين مكان الكنترول طيب؟

– جنب الكشك اللي تحت بيتكو... إنت هتشتغلني؟

– أصلي افتكرتك نسيت.

يضحك بقوة.

– هات دومنا يا ابني.

• • • •

مشهد ٧ :

ليل/ جامعة...

الثلاثة يلبسون ما يشبه خوذات رجال المطافئ...

يتسلقون السور ثم يدخلون إلى الحرم الجامعي...

وفوق السور...

– معاك ولعة؟

– عايز ولعة ليه طلبت معاك تولع في نفسك؟

– عايز أولع سيجارة.

– هي حبكت دلوقت يا حيلتها! الخطة كالتالي...

يقاطعه أحدهم:

– هنهاجم منين يا ريس؟

بسخريه:

– إنت ليك نفس تهذر؟

يقفزون بسرعة شديدة ثم يدحون خيالاً لفرد أمن فيجرون في اتجاه السور مهرولين إلى الشارع.

• • • •

– ممكن نعدِّل في الشخصيات، الشخصيات لازم تكون حقيقية والكاراكتر لازم يكون واضح بنسبة مية في المية، لازم تتفادى فكرة إنك تقدم للمتلقي حكم واضح علي الشخصية، النجاح الحقيقي إن المتلقي ميكونش مهتم بالحكم علي الكاراكتر، الأفلام الناجحة من وجهة نظري هي الأفلام اللي مبنهتمش وإحنا بنشوفها بالحكم علي أبطال العمل الفني.

إنها نفس وجهة نظر سوزي... يا للمرض!!

كان الصوت يأتي من اتجاه جانبي، كنا جالسين وظهورنا لحائط المقهى، وكانت تلك المجموعة التي يبدو أنها مهتمة بالسينما تجلس إلى جوارنا مباشرة، لكن إلى داخل المقهى كنت لا أستطيع تمييز أي منهم، كان الحديث جذابًا وكما لو أنه موجه لصديق السيناريو، حاولت التأكد فسألته:

– أنت سمعت الكلام اللي اتقال دلوقت؟

– كلام مين هو فيه حد قاعد معانا وأنا مش حاسس؟

– لأ الكلام جاي من الترابيزة اللي جنبنا.

– نعم... اللي هما فين دول أنا مش شايف حاجة!

– قاعدين في القهوة.

– إنت سمعت الكلام من بين رجليهم؟

يضحك بعنف.

– كل يوم اكتشف فيك مواهب جديدة.

لقد بدأت أعراض المرض تظهر للآخرين!!

يكمل صديق السيناريو:

- إنت بتتصنت ع الترابيزة اللي جنبنا ولا إيه؟

تصنعت الضحك ثم شعرت أنني لا أستطيع تذكر سياق الحوار الذي بدأه الصوت الجانبي، فمددت رقبتي لاستطلاع جلسة السيناريو، فرأيت فتاة جالسة على رأس طاولة طويلة، برفقة أربعة شبان، ويبدو كما لو أنها هي التي تعطي وتمنح على تلك الطاولة، أو أنها توزع أدوارًا أو شيء من هذا القبيل

....

كانت سوزي!!

٢١

كانت وجهة نظر صديق السيناريو تتلخص في أن أعود إلى البيت فورًا ثم آخذ حمامًا دافئًا وأنام بعد كم الهلاوس والانفعالات المريبة التي صدرت مني. كانت المرة الأولى التي يعرض عليَّ أحدهم النوم وأرفض.

– هنروح بار stella.

قلتها كمن اكتشف شيئًا.

بدأ صديق السيناريو يتأكد أنني في حالة غير طبيعية على الأقل.

– دلوقتي!

– أيوه.

– معييش فلوس و....

– معايا

– والسيناريو؟

تبدلت ملامحي كشيطان:

– إزاي تجرؤ على رفض دعوة محترمة للسكر! ثم إنها حانة محترمة وهناك البنت إياها. إنت نسيت إعجابك بيها. فاكر أيام ما كنت بتروح هناك الساعة عشرة صباحًا عشان تتبادل النظرات مع البنت دي!

– دي مش بنت على فكرة

يتعالى صوت الضحكات ثم أنطلق ورفيقي إلى مغامرة استعادة الوعي المفقود، في البار القريب من المقهى استقبلنا بودي جارد ماركة

اتفضلوا يا بهوات، كان طويل القامة، وكنا على أتم الاستعداد للتعامل معه وفق البروتوكول المعهود فالموقف كباريهاتي واضح. الشبورة عالقة في منتصف الهواء تمامًا. ورجل كبير السن ومتهالك يحاول الرقص، بينما أياد أخرى ترقص في جيوبه.

ترابيزة ٨...

- مساء الخير.

- مساء النور.

كان صديق السيناريو متجاوبًا أكثر بفضل يقظته الدائمة، فقد كان كباريهاتي قديم، وكانت فتاة البار التي تقف على بعد سنتيمترات فاتنة للغاية بجمالها الأوروبي الشرقي، فيما كنت متمسكًا برغبة أكيدة في البحث عن الوعي الغائب بين الأدخنة.

- عايز النمرة بقى...

كان الحوار في منتصفه تمامًا بينها وبين صديق السيناريو.

- اللي فوق ولا اللي تحت؟

- لا اللي تحت يا بنت... على فكرة أنا تربية كباريهات أصلاً.

- لا ما هو باين يا حبيبي.

كانت المساندة تأتي بتتابع زمني منضبط من فتاة أخرى تبدو كنموذج لفتاة الليل، كانت واسعة الفم عظيمة الأنف بعيون محدقة لم تعرف الحياة للحظة، وكانت الأجواء قد بدأت تروق لي، فقد شعرت أنني اخترت المكان الأنسب للموقف الذي أنا محشور فيه الآن. ربما لم أختر في حياتي اختيارًا صائبًا كهذا. الأجواء الحمراء تصنع مع رائحة الضياع كوكتيلاً مميزًا من المخاتلة للحواس، بدأت أشعر أن ما يحدث ربما يكون فيه شيء من المنطق للمرة الأولى. كنت قد بلغت الزجاجة التاسعة ولم أعد قادرًا على فعل أي شيء ورغم ذلك كنت أفكر بإشراق في سوزي.

قال صديق السيناريو فجأة:

- على فكرة يا صاحبي إحنا اتفتشنا.

- اتفتشنا إيه إحنا معناش فلوس.

- أمال هنحاسب إزاي؟

- هنكتب لهم شيك.

يضحك بعنف مفاجئ...

- أنا اللي محيرني إنها مش وش كازينوهات خالص، إزاي دي تشتغل في ماخور زي ده!!

- على فكرة المكان محترم وشريف.

- أيوه مانا عارف بس برضه ما ينفعش يعني.

كانت ملامح فتاة البار أرستقراطية حادة وكانت نظرتها بالإضافة لذلك تمتليء عزة وكبرياء.

- طب ما تيجي ناخدها معانا؟

- ها تقولك أنا مخطوبة وبتاع.

كنت أظن أنني قدمت لنفسي حلاً مبتكرًا بالذهاب للبار، لكنني كنت كمن أخذ حقنة مسكنة ثم ضاع أثرها بالتدريج، وبينما أنا على وشك الاستسلام التام للخدر اتخذ عقلي قرارًا غائمًا تكوّن شيئًا فشيئًا، ثم سيطر بعمق، لقد قررت مواجهة مصيري بشجاعة، والآن.سأذهب إلى سوزي... البيت.

٢٢

اعتقدت في البداية أنني أقف في متحف للشمع، فقد كانت كل الأشياء شمعية، حتى أنني شعرت أن الحوائط تسيل ثم تتجمد فجأة، ثم خطر لي هاجس يقول إن ذلك ربما يحدث باستمرار في ذلك البيت الأبيض. كانت الشمعدانات الخافتة موحية أكثر من أي شيء بأسطورة الشمع. كما أن حالة المكان تعطي حاسة البصر فرصة الحصول على الإيحاء. كان هبوطها ملائكيًا خافتًا.

– هاني... صباح الخير.

قالتها سوزي بمرح.

ارتجفت وكأن خيطًا من اللهب مرَّ على وجهي ثم وقفت كالتلميذ.

– إنت مالك وقفت مرة واحدة... اتفضل ارتاح.

كنت لا أعرف كيف أنفعل، وللحظات ظللت واقفًا أتلعثم بخليط من الانفعالات والكلمات المبعثرة التي لا تفضي إلى صوت محدد، ثم شددت جسدي منتبهًا كالجندي وقلت بثقة:

– طبعا هأقعد حالاً.

كانت تلبس وشاحًا أبيض اللون وكما لو أنها مبتلة قليلاً، عيناها كشعاع نور ووجهها شاحب شحوب المصعوقين بالكهرباء. حاولت تذكر شيء واحد يمكن قوله في مثل ذلك الموقف، لكن المحاولة باءت بالفشل الذريع، فاخترت أن أقلب بصري في الفراغ. بهدوء:

– أول مرة تزوريني بدري كده!

كانت الساعة التاسعة صباحًا والأجواء والحوار مناسبين للموتى أكثر، وعندما أدرت وجهي في اتجاه أعلى قليلاً من الأرض فوجئت بتشكيلة أخرى من البياض تغزو المنظر. كانت ممتلئة كسوزي وترتدي وشاحًا أبيض اللون.إنها الأم.

– منين اشتريتم الوشاحات الجميلة دي؟

أجابت باستمتاع:

– من محل في الزمالك.. كانت أمي بتحب النوعية دي من اللبس وكنت على طول بأتريق عليها، لكن الغريب إني بدأت أحب اللبس ده فجأة.

إجابة موتى، ستتغير طبيعة الأسئلة...

وما علاقتي بذلك يا سوزي؟

كنت أضغط حروف اسمها وأدور ببصري في أي شيء قد يكون دليلاً قاطعًا على أنها سوزي.

– سوزي بدأت تقتنع بالزي الأبيض امبارح بس... قالت الأم.

تمتمت ببطء:

– تصدقي إنتي فعلاً جميلة في اللبس ده.

كنت مرعوبًا جدًا.

أتاح لي خاطري أن أبادرها بالسؤال عما إذا كانت حية أم ميتة طوال الفترة السابقة، لكنني تراجعت سريعًا بعدما بدا لي أن وضوح شحوبها قد يزداد بعد ذلك السؤال، ركزت بصري في اتجاه بعيد تمامًا عن كل ما يمكن أن تنظر إليه.

ثم بصوت واثق وتري:

– كان فيه إشاعة بـــ......

ثم توقفت.

قالت سريعًا:

– بإيه؟

فكرت قليلاً:

- يانك مُتي...

ارتجفت وزاد شحوبها بشكل عظيم ثم بدا أنها على وشك البكاء.

- نعم....

- ما اتعرضتيش لأي سوء الفترة اللي فاتت؟

- إطلاقًا.

بدأت تتضايق من الحوار ثم أكملت:

- خير؟

- ولا حاجة... باطمن.

حاولت أن تعود لطيفة كما هو معتاد:

- تشرب حاجة؟

- ولا أي حاجة، أنا ماشي

ثم قفزت في الفراغ.

٢٣

وقفتُ للحظات على باب البيت ثم نظرتُ خلفي فجأة لأتأكد أن لا أحد يراقبني، ظللتُ على هذا الحال لثوانٍ، ثم انطلقت في الفراغ. بدأ إحساسي بالمعاني الفيزيائية التي حدثني عنها كمال، الشعراء والمبدعون أكثر إحساسًا بالمعاني الفيزيائية من غيرهم، وهذا الأمر لا يحدث من فراغ بل تقودهم الصدفة إليه. ثمة لحظات تاريخية في حياة كل إنسان يرتبك فيها إحساسه بالعالم، في تلك اللحظات بالذات يحس المرء بالمعاني الفيزيائية كما هي موجودة بالواقع النظري، فيشعر بالفراغ الفيزيائي، ويزيد إحساسه بسمك المعادن وصلابتها، ويحس الهواء بمعناه الفيزيائي شديد التعقيد. هذه اللحظات تتناقص كلما اتجه الإنسان نحو الكبر، وهي كثيرة للغاية في مرحلة الطفولة. كل ما يحدث للمبدعين وذوي القدرات الخاصة أنهم يلمسون هذه الأحاسيس الفيزيائية في الصغر فيتغير إحساسهم بالعالم، إذ أن تلك الخبرة الحسية شديدة الخصوصية، وهي وحدها كفيلة بتغيير الإحساس الداخلي للأشخاص، وجعلهم أكثر شفافية وقدرة على لمس الحقائق دون مجهود.

إنني الآن أشعر بالفراغ بمعناه الفيزيائي، إنني لا أستطيع أن أرتب أفكارًا عن ذلك لكن هذا هو ما أشعر به، تلاشى ذلك الإحساس ثم بدأت أشعر كما لو أنني واقف على كرة حديدية ضخمة. كنت لا أعرف فعلاً أين أنا الآن، بالداخل أم أنني خرجت بالفعل من ذلك العالم البغيض.

المعركة مستمرة وأنا مازلت على الدرب. بدأت أشعر باستحالة كون الإنسان مخيرًا، إنه كقطار يمشي على قضبان، كما قال ذلك الوغد المختفي الآن، وإلا فما الذي جعلني أذهب بالأمس إلى البار، ثم ما الذي جعلني أذهب منذ دقائق إلى بيت سوزي لأتأكد من صحة خبرها هل كنت مخيرًا في ذلك؟. ماذا لو لم أجدها جالسة على المقهى أمس وماذا لو لم يحدث كل ما حدث...

يقول كمال: "في يوم من الأيام ذهبت مع أصدقائي إلى إحدى صالات اللهو؛ وفي تلك الصالة نسيت كتابًا، ولما اكتشفت نسياني للكتاب بعد فوات الأوان أجّلت أمر استعادته، وفي اليوم التالي كان عليَّ الذهاب إلى موعد مهم، وحينما لم أجد أحدًا عند ذهابي إلى الموعد فلقد اتصلت بأصدقائي الذين كنت بصحبتهم واتفقت معهم

على موعد لاستعادة كتابي، وأدى ذلك إلى إلغاء مواعيدي وتغيير خطتي تمامًا، وفي طريقي إلى تلك المنطقة النائية التي تقع فيها صالة اللهو بدا لي غريبًا أن أذهب إليها في غير أيام الأجازات، وسألت نفسي لماذا أنا ذاهب الآن، شعرت للحظات بالغربة والضياع لكنني لم أفكر أبدًا في التراجع، الحياة كلها مثل يوم كهذا...".

أحسست باحتياج شديد لكاهني الأول وعرَّاب حقيقتي وإشبيني، ثم تلطخ عقلي من الداخل بألوان تلك الحقيقة التي تقول إنه سيظل عراب حقيقتي طيلة حياتي، وأن ما بيننا أكبر وأهم من زمالة المحتجزين أو من العلاقة الإنسانية المسماة الصداقة، لقد رسمه خيالي كتوأم ملتصق بي فكريًا. أشعر أنني بالنسبة إلى كمال كطفل الكنجارو، إن كلماته تلح عليَّ بشكل غير معقول، كما أنني أحفظها تمامًا كما لو أنها ورد مقدس، ثم إنها تدور في عقلي بانسيابية وعذوبة كما يدور كوكب حول شمسه، لكنني الآن أشعر شعورًا جديدًا ومختلفًا، إنني بحاجة إليه، عرجت على كشك سجائر ثم تناولت هاتفًا عفا على نوعه الزمن، وأدرت القرص فسمعت صوت صفارة الأنسر ماشين المميزة...

تسجيل ١٠:

خط السير الواهي للأحداث بدأ في الانكشاف، كما أن الظاهرة تفرض نفسها بحيث لا يمكنني سوى إعادة التفكير في نظريتك بشكل أعمق، بل والإيمان بها، فهناك بالفعل خط سير حقيقي آخر مواز لكل الأحداث، يختلف كليًا عما ندركه، وهو خط السير الذي لا يعلمه إلا الله، نصف ما حدث لم يحدث والنصف الآخر تم فهمه بطريقة مشوشة، لا يفكر الإنسان فيما حدث بشكل كاف وإنما فقط يعيش تداعيات الحدث ونتائجه، بحيث يصبح الحدث الأول ثانويًا ومهمشًا، كما أن الانشغال بالتوابع يلهي عن اتباع الحدث الأصلي، ويجعلنا في أوقات غير قليلة من حياتنا نعيش تداعيات ما لم يحدث.

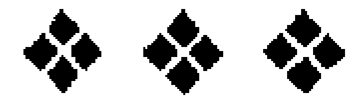
منذ ٧٢ ساعة وأنا أعيش فيما حدث أو فيما لم يحدث، لست أعرف على وجه الدقة، لكن ما لا يمكن إنكاره أنني على يقين من صدقك، فالحدث أقل تأثيرًا مما ندرك، كما أن الواقع أقل كثافة مما نعتقد، إنه كخيال على صفحة ماء، تقول إن كل ما حدث لم

يحدث وإنما فهمنا فقط أنه حدث، وأنه لا يوجد حدث واحد يستوعبه العقل كما وقع تمامًا، فلابد أن يضيف أو يحذف، إنني مقتنع كليًا بكل ما قلته كما كانت سوزي مقتنعة.

كانت محاولات سوزي التوثيقية بالتسجيل لك تمثل استجابة لما أوحيت به إليها بأن التوثيق محاولة وحيدة وأخيرة للفهم، كانت الصدمة أنها وثّقتك أنت ذاتك وطبقت عليك نظريتك بعد أن استهوتها ومضتك، لم تجرؤ أنت على خوض تجربتك لأنك لا تجيد سوى التفكير، فيما صبت هي تركيزها على التنفيذ، لأنها لا تعرف سواه، لكن السؤال الملح هنا هو لماذا لم تتوقع أنت أن تختارك ضحية؛ رغم أن المنطق يقول إنك كنت أنسب شخص تُطبق عليه التجربة، خاصة وأنك منبع الفكرة، هناك شيء غامض بخصوص سوزي لا أعرف إن كان حدث أم لم يحدث، هناك قصة أخرى تقول إنها لم تمت وأنني عزيت في فتاة أخرى وأن طارق صديقي قدم واجب العزاء في فتاة لا نعرفها تدعى سوزي أيضًا، لكن السؤال الأكثر إدهاشًا هو لماذا استدعاني الضابط... لا أعرف هناك خطأ ما يحدث، ولا أعلم على وجه الدقة إن كان متعلقًا بي أم بغيري...

كل ما حدث لم يحدث وإنما فهمنا فقط أنه حدث... هل تعد تلك القصة برهانًا على ذلك؟، هل هناك قصص أخرى من نفس النوعية تحدث لنا أم أن ذلك ما يحدث على الدوام... هناك قصة أخرى ولابد أن تسمعها، غدًا في الثامنة مساءً سأنتظرك على ناصية باب اللوق بصحبة طارق؛ لتسمع قصتي الأخرى، الموعد نهائي وغير قابل للتعديل هاتفيًا أو بأي طريقة أخرى.

سمع كمال مبتسمًا التسجيل ثم قفز داخل ملابسه وانطلق إلى قصته الجديدة، بينما كان شركاء جريمته على وشك التلاقي على ناصية باب اللوق لمعرفة فصل جديد من فصول الحقيقة.



تمت

المؤلف في سطور

- شاعر وروائي مصري من مواليد القاهرة
- تخرج في كلية العلوم جامعة عين شمس
- يعمل صحفيًا بجريدة "اليوم السابع"
- فاز بعدد من الجوائز الأدبية منها :

- المركز الثاني في مسابقة أدباء الأقاليم عام ٢٠٠٢

- فاز بجائزة جامعة عين شمس فى الشعر عام ٢٠٠٠

- صدر له:

- حفلة التجسس : رواية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٥م

- طبق الموت : ديوان شعر (تحت الطبع)

- للتواصل مع المؤلف : abdo_kmal@yahoo.com

abdulrahman.kamal@facebook.com



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net



- لمَّا باب بيتي الدق عليه اشتغل: كنت عايم في الأرق بسبب سوزي، كنت بافكّر في اللي حصل بيننا، ولمَّا الضابط قال لي إنهم عايزني شوية ما استغربتش، لبست هدومي عادي جداً وكأني رايح رحلة، كنت عارف إن الموضوع ليه علاقة بسوزي ولما كنت راكب البوكس كنت بفكر فيها، وأول ما دخلت القسم الضابط قال لي إن سوزي ماتت.

كان يحاول الاحتفاظ برباطة جأشه، وكان واضحًا بالفعل أن دموعه عزيزة لكن عيناه بدتا على الرغم منه ككرتين من المطاط تعومان فوق بحر من الدموع، كانت الهالات السوداء واضحة تحت عينيه والحزن المفاجئ يلمع فوق وجهه كزبد البحر، بدا لي شكله واضحًا هذه المرة، وللمرة الأولى أشعر أن بوجهه وسامة وغموضًا.





